

## الباب الرابع

### الصفات المستحبة

### من مكارم الأخلاق

الفصل الأول: الإحسان

الفصل الثاني: الإخلاص

الفصل الثالث: الاستقامة

الفصل الرابع: الأسوة الحسنة

الفصل الخامس: إفساء السلام

الفصل السادس: الأمانة

الفصل السابع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الفصل الثامن: الإنفاق والصدقة في سبيل الله

الفصل التاسع: بر الوالدين

الفصل العاشر: تذكرو الموت

الفصل الحادي عشر: التواضع

الفصل الثاني عشر: التوبة

الفصل الثالث عشر: التوكل على الله

- الفصل الرابع عشر: حق الجار  
الفصل الخامس عشر: في الحكمة  
الفصل السادس عشر: الحياء  
الفصل السابع عشر: صلة الرحم  
الفصل الثامن عشر: العدل  
الفصل التاسع عشر: العفو والصفح  
الفصل العشرون: القناعة  
الفصل الحادي والعشرون: الكرم

\*\*\*

## الفصل الأول

### الإحسان

١ - معنى الإحسان:

الإحسان ينتظم معنيين:

(أ) الاتقان والإجادة. يقال: أحسن فلان عمله إذا أتقنه وأجاده ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (١).

(ب) الإنعام على الغير. يقال: أحسن إلى فلان، إذا تفضل عليه وأبره، ومنه - قول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم  
فطلما استعبد الإنسان إحسان

الإحسان لغة: ضد الإساءة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونِ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ (٢) أى يدفعون بالكلام الحسن ما ورد عليهم من مساوئ غيرهم.

وفى الاصطلاح:

قال المناوى: الإحسان إسلام ظاهر، بقيمة إيمان باطن، يكمله إحسان شهودى.

وقال الراغب: الإحسان فعل ما ينبغى فعله من المعروف وهو قسمان:

أحدهما: الإنعام على الغير.

والثانى: الإحسان فى فعله، وذلك إذا علم محموداً، وعمل حسناً، ومنه قول على ؓ: الناس أبناء ما يحسنون، أى منسوبون إلى ما يعلمون ويعملون.

٢ - حقيقة الإحسان:

فسر النبى ﷺ الإحسان حين سأله جبريل صلوات الله وسلامه عليه فقال: هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. أراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة وحسن الطاعة، فإن من راقب الله أحسن عمله، وهو تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (٣). ولذلك عظم الله ثواب أهل الإحسان فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤) وقال عز وجل:

(١) سورة السجدة الآية ٧.

(٢) سورة الرعد الآية ٢٢.

(٣) سورة النحل الآية ٩٠.

(٤) سورة البقرة الآية ١٩٥.

﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾<sup>(١)</sup> أى ما جزاء من أحسن فى الدنيا إلا أن يحسن الله إليه فى الآخرة.

#### ٢ - دعوة الإسلام إلى الإحسان:

والإسلام دعا إلى الإحسان، وندب إليه. لأن ممارسته هى أنجح الوسائل لتثبيت الفضائل، وتعميق جذورها فى النفس، وليرتفع المستوى الإنسانى بصرف القوى فى ترقية الحياة، وإفاضة البر إلى من هم فى حاجة إلى البر والرحمة.

فالمحسنون فى نظر الإسلام أحباب الله، يكلؤهم بعنايته، ورحمته لا تفارقهم طرفة عين.

﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾<sup>(٣)</sup>.

ومنفعة الإحسان وفائدته تعود على المحسن نفسه، والله سبحانه يبادل بالإحسان إحساننا:

﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾<sup>(٤)</sup>.

والإحسان الأول فى هذه الآية هو - كما قال ابن عباس والمفسرون - قول لا إله إلا الله. والإحسان الثانى - فى الآية - هو الجنة.

والمعنى: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة.

#### ٤ - شمولية الإحسان واتساع دائرته:

من تأمل الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الواردة فى الإحسان يتضح له بجلاء أن الإحسان يشكل جوهر العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وأن دائرة هذا الإحسان تتسع لتشمل النفس والأسرة والأقارب ثم المجتمع والإنسانية عامة.

فالدائرة الأولى: الإحسان إلى النفس وهى تعنى إخلاص العبادة وكمال الطاعة، قال تعالى:

﴿ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾<sup>(٥)</sup>.

وأما الدائرة الثانية: فتشمل الوالدين. قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاهُ

وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة الرحمن الآية ٦٠.

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٥.

(٣) سورة الأعراف الآية ٥٦.

(٤) سورة الرحمن الآية ٦٠.

(٥) سورة الإسراء الآية ٧.

(٦) سورة الإسراء الآية ٢٣.

وأما الدائرة الثالثة: وهى دائرة الأقارب فإنها تشمل قرابة النسب وقرابة الجوار، وقد ورد الحث عليها فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ رِيبًا لِلَّذِينَ أَحْسَنَآ وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (١).

وفى الحديث الشريف ورد الحث على الإحسان إلى الجار فى قوله صلى الله عليه وسلم: وأحسن جوار من جاورك تكن مسلمًا .. الحديث (رواه الترمذى).

أما الدائرة الرابعة: وهى أوسع من سابقتها فإنها تضم المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان. والإحسان هنا ينصب على الجانب الضعيف فى المجتمع كاليتامى والمساكين وأبناء السبيل ومن على شاكلتهم (٢). يقول الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالَّذِينَ أَحْسَنَآ وَبِذَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (٣).

وذى القربى: هم الأقرباء .. والجار ذى القربى: الجار المجاور أو القريب. والجار الجنب: الجار البعيد سكنًا أو نسبًا. والصاحب بالجنب: الزوجة والصديق. والرفيق فى العمل، وفى السفر. وابن السبيل: المسافر المنقطع عن أهله. وما ملكت أيمانكم: الإماء والعبيد والخدم.

فهؤلاء يجب أن يعمهم الإحسان ليسود الجميع المحبة والمودة ويشملهم الأمن والسلام. أما الدائرة الخامسة: وهى الأوسع والأرحب فى المعاملات الإنسانية فتشمل الإحسان إلى المخالفين فى العقيدة بالصفح عنهم. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْبًا مِّنْصِفًا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَآةَ عَنْ مَوَاضِعِهَا وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤).

وهكذا إذا تتبعنا نواحي الإحسان وضروريه نجد معناه واسعًا، وأن الله يريد للناس أن يعيشوا فى ظله، ويسعدوا بالحياة، ويصلوا إلى المثل الأعلى وهذا هو الدين الحق الذى يتقبله الله ولا يتقبل غيره.

(١) سورة البقرة الآية ٨٣.

(٢) بتصريف من فلسفة التروبية / ماجد الكيلانى.

(٣) سورة النساء الآية ٣٦.

(٤) سورة المائدة الآية ٩٣.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾<sup>(١)</sup>

٥ - الإحسان من أهم وسائل نهضة المسلمين:

إن الإحسان يقتضى من المسلم إتقان العمل المنوط به، إتقان من يعلم علم اليقين أن الله - عز وجل - ناظر إليه ومطلع على عمله، وبهذا العمل تنهض الأمم وترقى المجتمعات<sup>(٢)</sup>.



---

(١) سورة النساء الآية ١٢٥.

(٢) بتصرف من موسوعة نضرة التعميم نقلا عن فلسفة التربية الإسلامية/ ماجد الكيلانى.

## الفصل الثاني

# الإخلاص

### ١- معنى الإخلاص:

الإخلاص: أن يقصد الإنسان بقوله وعمله وجهاده، وجه الله، وابتغاء مرضاته من غير نظر إلى مغنم، أو جاه، أو لقب، أو مظهر، أو تقدم، أو تأخر، ليرتفع المرء عن نقائص الأعمال، وذنائب الأخلاق، ويتصل مباشرة بالله.

وفي التنزيل: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾<sup>(١)</sup>. قرئ بالفتح والكسر.

فالمخلصون: المختارون، والمخلصون: الموحدون.

- ولذلك قيل لسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص، لأنها خالصة في صفة الله،

تعالى الله وتقدس، أو لأن الالفاظ بها قد أخلص التوحيد لله عز وجل.

- وكلمة الإخلاص: كلمة التوحيد.

- والإخلاص في الطاعة ترك الرياء.

- وقال الجرجاني: الإخلاص: ألا تطلب لعملك شاهداً غير الله تعالى.

- وأجمعوا على أن الإخلاص في الطاعة ترك الرياء.

- وقال الفضيل بن عياض: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجلهم شرك،

والإخلاص: الخلاص من هذين.

### ٢- دعوة الإسلام إلى الإخلاص:

وقد دعا الإسلام إليه ورغب فيه، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٣٤﴾﴾<sup>(٢)</sup> وأمر الله به فقال: ﴿وَمَا أُرْوَأُ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

روى ابن أبي حاتم، عن طاووس، أن رجلاً قال: يا رسول الله ... إنني أقف المواقف، أريد

وجه الله، وأحب أن يرى موطني؟ فلم يرد عليه رسول ﷺ شيئاً، حتى نزلت هذه الآية:

(١) سورة ص الآية ٨٣.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٢ - ١٦٣.

(٣) سورة البينة الآية ٥.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ لَعَلَّكُمْ﴾ (١)

### ٣ - الإخلاص دليل كمال الإيمان:

روى أبو داود بسند حسن أن الرسول ﷺ قال: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان».

- والله سبحانه ينظر إلى القلوب لا إلى المظاهر والأشكال.

- عن أبي هريرة ؓ أن الرسول ﷺ قال:

«إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [رواه مسلم].

- وعن أبي موسى الأشعري قال: سئل الرسول ﷺ... الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» [رواه البخارى] أى قاتل من أجل إعلاء الحق ورفع رايته.

### ٤ - الإعجاب بثناء الناس لا ينافى الإخلاص:

وإذا عمل المرء العمل وأخلص فيه ثم أطلع عليه الناس دون قصد منه، وأعجبه ثناؤهم عليه، فهذا لا يحبط العمل، ولا ينافى الإخلاص.

- روى الترمذى عن أبى هريرة، أن رجلاً قال:

يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيسره (٢)، فإذا أطلع عليه أعجبه ذلك؟

قال رسول الله ﷺ: «له أجران: أجر السر، وأجر العلانية».

بل قد يكون ثناء الناس من البشريات المعجلة.

فعن أبى ذر ؓ أنه سأل رسول الله ﷺ قال:

أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير فيحمده الناس عليه؟

قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن» [رواه مسلم].

### ٥ - حقيقة الإخلاص:

إن حقيقة الإخلاص باعتباره التزاماً فى مواقف الحياة وهو «التبرى من كل ما دون الله»

جعلنا ننظر إليه من زاويتين:

الأولى: من حيث تعلقه بالعمل، أو من حيث كونه واقعاً بحياة الناس ومواقفها، أو من حيث كونه يتعلق بسلوك الإنسان نجد العمل الصادر عن الإنسان - أياً كان - إذا قصد به وجه الله، وظهرت الشواهد على ذلك، فإنه يعد مخلصاً لأنه خالص من الشرك والرياء والكذب لأن

(١) سورة الكهف الآية ١١٠.

(٢) فيسره: يخفيه على الناس لإخلاصه.

العمل الإنسانى قد يشوبه شيء من ذلك.

- وإذا كانت المعانى السالفة عن رياء وغش تمتد إلى العمل فتجعله شركاً بوجه من وجوه الشرك، إذن فإن من الشرك ما هو خفى وما هو جلى، وكذلك الإخلاص، وكلاهما وارد على قلب المسلم. ويكون ذلك فى المقصود والنية ولذلك يأتى الفعل على قدر النية، إما مخلصاً وإما غير مخلص، ومن كان غرضه التقرب إلى الله فهو مخلص وإلا فلا.

ولذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة خالصة لوجه الله نجا، وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب، بل العمل الخالص هو الذى لا باعث له إلا طلب القرب من الله تعالى<sup>(١)</sup>.

وبناء على ما سبق فإن:

- الإخلاص هو تصفية السر والقلب والعمل.

- والإخلاص هو الذى لا باعث له إلا طلب الحق.

- والإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول فى العمل.

- والإخلاص لله هو ألا يفعل المخلص فعلاً إلا لله تعالى.

الثانية: من جهة معناه وشروطه، كموقف يلتزم به الإنسان فى حياته.

وفى هذا الصدد قالوا: الإخلاص أربعة أقسام:

- إخلاص فى الأقوال.

- إخلاص فى الأفعال.

- إخلاص فى العبادات

- إخلاص فى الأحوال.

والدين شامل لكل هذا.

وخلاصة الأمر: أن الإخلاص تصفية للقول والعمل والعبادة مما يشوبها من رياء ومراءاة

أو خداع أو كذب<sup>(٢)</sup>.

٦ - الإخلاص فى حياة الرسول وأصحابه:

لقد كانت حياة الرسول ﷺ كلها إخلاصاً، فقد جاء فى القرآن الكريم على لسانه صلى الله

عليه وسلم: ﴿قُلِ اللَّهُ أَتَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾<sup>(٣)</sup>.

- وقد تجلى صلى الله عليه وسلم فى العبادة والنصح للمسلمين.

أما الصحابة رضوان الله عليهم فقد كان الإخلاص رائدهم فى كل ما يقومون به.

- ومن الأمثلة التطبيقية فى حياة الصحابة ما جاء فى حديث سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه قال:

وأما عكرمة فركب البحر فأصابته عاصفة، فقال أصحاب السفينة:

(١) إحياء علوم الدين (٤/٣٦٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة الزمر الآية ١٤.

«أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئاً» فقال عكرمة:

«والله لئن لم ينجنى من البحر إلا الإخلاص، لا ينجنى في البر غيره، اللهم إن لك على عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آت محمداً ﷺ حتى أضع يدي في يده فلاجدنه عفواً كريماً، فجاء فأسلم» [رواه النسائي].

٧- من صور الإخلاص ومظاهره:

مما سبق يتضح لنا أن للإخلاص صوراً متعددة تتمثل فيما يلي:

- الإخلاص في التوحيد.
- الإخلاص في النية والقصد.
- الإخلاص في العبادات: الصلاة، الصيام، قيام رمضان، إحياء ليلة القدر، حب المساجد، الزكاة، الصدقة، الجهاد، التوبة والذكر والاستغفار والدعاء وقراءة القرآن وسائر القربات.
- الإخلاص في الأقوال كلها.
- الإخلاص في الالتزام بمكارم الأخلاق كالصبر والزهد والتواضع.. إلخ.
- الإخلاص في التوكل على الله.
- الإخلاص في كافة الأعمال.

### قصة بليغة في الإخلاص

قال أبو حامد الغزالي: ورد في الإسرائيليات أن عابداً كان يعبد الله دهرًا طويلاً فجاءه قوم فقالوا: إن ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى، فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له: أين تريد أيها الشيخ يرحمك الله؟

قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة.

فقال له إبليس: تركت عبادتك وانشغلت بالشجرة.

قال العابد: إن هذه من عبادتي.

فقال له إبليس: فإني لا أتركك تقطعها، فقاتله فأخذه العابد فطرحه على الأرض وقعد على صدره، فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلمك، فقام عنه.

فقال له إبليس: يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك، وأنت لست تعبدها ولا يعينك أن غيرك يعبدها، والله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها.

فقال العابد: لا بد من قطعها. فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس وضعف ثم قال للعابد: هل لك فى أمر فصل بينى وبينك وهو خير لك وأنفع؟  
قال: وما هو؟

قال: أطلقنى حتى أقول لك، فأطلقه.  
فقال إبليس: أنت رجل فقير لا مال لك وكل الناس يحسنون إليك. ولعلك تحب أن تشيع وتستغنى عن الناس وتحسن إلى جيرانك وإخوانك.  
قال: نعم.

قال: فأرجع عن هذا الأمر ولك على أن أجعل عند رأسك فى كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتها فأنفقت على نفسك وعبالك وتصدقت على إخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التى ربما يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئاً ولا ينفع إخوانك من المؤمنين قطعك إياها.

ففكر العابد فيما قال، وقال فى نفسه: صدق الشيخ لست بنبى فيلزمنى قطع هذه الشجرة ولا أمرنى الله أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها، وفى الدنانير فائدة عظيمة فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له، فرجع العابد إلى صومعته فبات، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئاً. فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس فى صورة شيخ فقال له: إلى أين؟  
قال: عازم على قطع تلك الشجرة.

فقال له: كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها، فتناوله العابد ليفعل به ويصرعه كما فعل أول مرة فلم يستطع، فأخذه إبليس وصرعه على الأرض، فإذا هو كالعصفورة تحت رجليه وقعد إبليس على صدره، وقال له: لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك؟  
فبهت العابد لما رأى نفسه لا طاقة له به فقال: يا هذا: إنك غلبتني فأطلق سراحى وأخبرنى كيف غلبتني أولاً وغلبتني الآن؟

فتركه، وقال له: إنك غلبتني أول مرة لأنك غضبت لله وكانت نيتك خالصة لوجه الله فمكنتك الله منى، وهذه المرة غضبت من أجل الدنانير فتخلي الله عنك ومكنتى منك<sup>(١)</sup>.



(١) إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٥٤٢.

## الفصل الثالث

### الاستقامة

#### ١- دعوة الإسلام إلى الاستقامة:

دعا الإسلام إلى الاستقامة وجعلها أعلى المقامات، حتى قال العلماء: «إن الاستقامة هي عين الكرامة».

وأسلوبه في الدعوة إليها يستهوى الأفتدة، ويؤثر في النفوس، ويحملها على التزامها، والتعلق بأدابها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَرْلَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (١).

أى إن الذين آمنوا بالله إيماناً حقاً، واستقاموا على الطريق الذى رسمه لعباده، فإن الملائكة تنزل عليهم عند الموت وتقول لهم:

لا تخافوا مما أمامكم من أهوال القبر وعذاب الآخرة، ولا تحزنوا على ما تركتم وراءكم من أموال وأولاد، وأبشروا بالجنة التى وعدكم الله بها.. وأن هؤلاء الذين قالوا ربنا الله واستقاموا، يتولاهم الله برحمته ورضاه، كما التزموا الاستقامة وساروا على الجادة دون اعوجاج أو انحراف، ولهم عند الله جميع الرغبات التى تشتهيها أنفسهم، ولهم جميع ما يطلبون (٢).

وذلك أعده الله لهم لأنه غفور يتجاوز عن سيئاتهم، ويدخلهم برحمته فى عباده الصالحين، عن سفيان بن عبد الله قال: قلت: يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: «قل آمنتم بالله ثم استقم» [رواه مسلم].

#### ٢- الاستقامة طريق النجاة:

قال ابن القيم رحمه الله:

الاستقامة هى لزوم المنهج القويم .. قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾﴾ (٣).

(١) سورة فصلت الآية ٣٠ - ٣٢.

(٢) يتصرف من كتاب إسلامنا/ السيد سابق.

(٣) سورة الأحقاف الآية ١٣ - ١٤.

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَاسْتَقِيمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْفُوا إِنَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾<sup>(١)</sup>. فبين أن الاستقامة بعدم الطغيان وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا ۗ وَإِنَّ لِلْمُتَشْرِكِينَ﴾<sup>(٢)</sup> والمقصود من استقامة العبد (السداد) فإن لم يقدر عليها (فالمقاربة).

- وعند مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قاله: «سددوا وقاربوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

- فجمع في هذا الحديث مقاومات الدين كلها. وأمر بالاستقامة وهي السداد. والإصابة في النيات والأقوال، وأخبر في حديث - ثوبان - أنهم لا يطيقونها فنقلهم إلى المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم، كالذي يرمى - بسهم - إلى الغرض فإن لم يصبه يقاربه، ومع هذا فقد أخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجى يوم القيامة، فلا يركن أحد إلى عمله، ولا يرى أن نجاته به، بل إنما نجاته برحمة الله وغفرانه وفضله، فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها. وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله تبارك وتعالى.

- وقال رحمه الله.

من هدى في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه، هدى هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته دار ثوابه، وعلى قدر ثبوت العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدنيا، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذلك الصراط ولينظر العبد الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم فإنها الكلايب التي يجنبتى ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه. فإن كثرت هنا، وقويت فكذلك هناك: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾<sup>(٣)</sup>.

٣- أثر الاستقامة في حياة الناس:

والاستقامة شأنها أن ترقى بالإنسان وتصل به إلى الذروة من الكمال. وتحفظ عقله وقلبه من أن يتطرق إليهما الفساد. وتصون نفسه من التردى في حمأة الرذيلة..

(١) سورة هود الآية ١١٢.

(٢) سورة فصلت الآية ٦.

(٣) سورة فصلت الآية ٤٦.

- وإذا سيطرت الرغبة في الاستقامة على جماعة، وسادت بينهم، حسنت أحوالهم واستقامت أمورهم، وعمهم الأمن والسلام.  
 وإذا ضعفت الرغبة في الاستقامة، ضعف الإقبال على الخير، وعظم التورط في الإثم، وفشا المنكر، وتعرض الفرد والجماعة للانحراف، والخطايا، والانحلال الذي يعقبه سلب الحرية والاستغلال.

- لهذا اهتم الإسلام بها اهتمامًا بالغًا، وأولاهها عناية خاصة.  
 فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه خطا مستقيما، وخط عن يمينه خطوطا، وعن شماله خطوطا، ثم قال مشيرا إلى الخط المستقيم: هذا سبيل الله.

وقال مشيرا إلى الخطوط التي عن يمينه وشماله: هذه سبيل. على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١) [رواه الدرامي].

- روى أحمد: عن النواس بن سمعان الأنصاري، عن رسول الله ﷺ قال: ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتى (٢) الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة. وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول:

يا أيها الناس: ادخلوا الصراط جميعا ولا تتفرجوا.

وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه (٣).

والصراط: الإسلام ..

والسوران (٤): حدود الله تعالى..

والأبواب المفتحة: محارم الله تعالى (٥) ..

وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله (٦) - عز وجل.

والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم (٧).

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٣.

(٢) جنبتى الصراط: جانبا الصراط.

(٣) تلجه: تدخله.

(٤) السوران: الحاجزان بين الحلال والحرام.

(٥) محارم الله: ما حرم الله.

(٦) لأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

(٧) ما أودعه الله في القلب من الإيمان المانع مع الحرام.

٤ - إذا استقام القلب استقامت الجوارح:

قال ابن رجب رحمه الله تعالى:

«أصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد، فمتى استقام القلب على معرفة الله، وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبته وإرادته ورجائه ودعائه والتوكل عليه والإعراض عما سواه. استقامت الجوارح كلها على طاعته. فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه. وأعظم ما يراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللسان، فإنه ترجمان القلب والمعبر عنه<sup>(١)</sup>.



---

(١) يتصرف - جامع العلوم والحكم - ابن رجب.

## الفصل الرابع

### الأسوة الحسنة

١- معنى الأسوة الحسنة:

الأسوة بمعنى القدوة، تقول: لى فى فلان أسوة «بالكسر أو الضم» أى قدوة أى الاقتداء الحسن. وهى نوعان حسنة وسيئة.

ذكر الشيخ صالح بن حميد أن الأسوة نوعان:

(أ) الأسوة الحسنة: أى الاقتداء بأهل الخير والفضل والصلاح فى كل ما يتعلق بمعالى الأمور وفضائلها.

(ب) والأسوة السيئة: تعنى السير فى المسالك المذمومة واتباع أهل السوء والاقتداء بهم من غير حجة أو برهان <sup>(١)</sup>.

٢- أصول القدوة:

أصول القدوة المعتمدة عند أهل العلم ثلاثة:

الأصل الأول: الصلاح وهو يتحقق بثلاثة أركان:

الركن الأول: الإيمان.

الركن الثانى: العبادة.

الركن الثالث: الإخلاص.

الأصل الثانى: حسن الخلق.

الأصل الثالث: موافقة القول بالعمل.

٣- شواهد حية فى مواقف القدوة:

يعد الصحابة رضوان الله عليهم نموذجاً أعلى فى القدوة وعلى رأسهم إمام الأنمة نبينا محمد ﷺ فهو الأسوة الحسنة للمسلمين جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ  
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ <sup>(٢)</sup>.

(١) انظر كتاب مبادئ و نماذج فى القدوة/ الشيخ صالح بن حميد.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١.

- قال القرطبي: فيقتدى به رسول الله ﷺ في جميع أفعاله ويتعزى به في جميع أحواله، فلقد شج وجهه، وكسرت ربايعته، وقتل عمه، وجاع بطنه ولم يُلَقْ إلا صابراً محتسباً، وشاكراً راضياً، عن أنس بن مالك قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين. [أخرجه الترمذى] (١).

ومن الشواهد الحية في القدوة: موقف الإمام أحمد في فتنة خلق القرآن وكذلك العلماء العاملون من السلف والخلف ومن بعدهم على مر الزمان.

- ولولا رسول الله ﷺ لما كان أصحابه القريبون منه، ولولا هؤلاء لما كان من بعدهم من الناس، ولولا الفتحة لما دخل الناس في دين الله أفواجاً.

٤- أثر القدوة الحسنة في انتشار الإسلام:

إن من الوسائل المهمة جداً في تبليغ الدعوة إلى الله وجذب الناس إلى الإسلام وامتنال أوامره واجتناب نواهيه القدوة الطيبة للداعية وأفعاله الحميدة وصفاته العالية وأخلاقه الكريمة مما يجعله أسوة حسنة لغيره، يكون بها نموذجاً يقرأ فيه الناس معاني الإسلام فيقبلون عليها وينجذبون إليها. لأن التأثير بالأفعال والسلوك أبلغ وأكثر من التأثير بالكلام وحده. إن الإسلام انتشر في كثير من بقاع الدنيا بالقدوة الطيبة للمسلمين التي كانت تبهر أنظار غير المسلمين وتحملهم على اعتناق الإسلام.

كما أن القدوة الحسنة للداعى وسيرته الطيبة هي في الحقيقة دعوة عملية للإسلام (٢).

٥- الأسوة خير مرشد:

الأسوة خير مرشد ينير الطريق، وهي مدرسة الإنسان العملية التي يرسخ تعليمها في النفوس ويعلق بالأفهام، والناس يميلون - بطبعهم - إلى أن يتعلموا بعيونهم أكثر مما يتعلمون بأذانهم، ومهما أوتى المعلم من البراعة في تهذيب النفوس فليس ببالغ ما يبلغه زميل له دونه في النصح وفوقه في السيرة. ولذا كان خير النصح: افعل كما أفعل لا كما أقول. ولما كانت غريزة التشبه والتقليد أقوى ماتكون في الأحداث وجب أن ينشأوا في بيئة صالحة ليشبوا نافعين كمن حولهم، ومن أجل ذلك كانت التربية البيئية أكثر أثراً وأعم نفعاً من التربية المدرسية، فالبيت أصل المجتمع، ومن ينبوعه تنبثق الآداب والأخلاق، ومحبة الأسرة مصدر المحبة الوطنية، ومن هذه الدائرة الصغيرة تتولد دوائر كبيرة تعم العالم أجمع، وصفات الوالدين تظهر في أولادهما إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

(١) انظر تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٥٦.

(٢) مبادئ وتماذج في القدوة/ الشيخ صالح بن حميد.

وخير تراث يتركه الآباء للأبناء السيرة الحسنة، والقدوة الصالحة، فإنهما يدفعانهم إلى طريق الخير ويصدانهم عن الشر، ولا شرف أعظم من أن يسعد السلف والخلف كل بعمل الآخر الحميد. وذوو الهمة والمروعة لا يقدرّون أن يحركوا الناس للعمل ما لم يكونوا هم من أهله، ولا يكفينا أن نقول للناس: اعملوا كذا وكذا، بل علينا أن نعمل أمامهم كي يقتدوا بنا<sup>(١)</sup>.



---

(١) بتصرف من كتاب الخلق الكامل محمد أحمد جاد المولى.

## الفصل الخامس

### إفشاء السلام

#### ١- فضل السلام:

شرع الإسلام التحية عند اللقاء وعند المفارقة، كمظهر من مظاهر المدنية الصحيحة. إذ إن التحية من شأنها، أن تؤلف القلوب، وتقوى الصلات، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا. ولا تؤمنوا حتى تحابوا. أفلأ أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» [رواه مسلم].

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» [رواه الترمذى].

#### ٢- صيغة التحية:

أتم صيغة للتحية هي: السلام عليكم <sup>(١)</sup> ورحمة الله وبركاته.

قال تعالى: ﴿سَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ﴾ <sup>(٢)</sup>

أى ليقبل بعضكم لبعض، والسلام عليكم، وهذا السلام تحية شرعها الله لكم، وكلها الخير والطيبة والبركة، لما فيها جلب المحبة، وتقوية عرى المودة.

وإنما جعلت تحية المسلمين بهذا اللفظ، وهو لفظ السلام، للإشعار بأن دينهم دين السلام والأمان، وأنهم أهل السلم ومحبو السلام. وإنما كانت هذه الصيغة أتم لما فيها من مزيد الثواب وإن كان يكفى لفظ «السلام عليكم ورحمة الله» فرد عليه. ثم جلس. فقال النبي صلى الله عليه وسلم عشر <sup>(٣)</sup>. ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله أو «السلام عليكم» فقط.

عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليكم فرد عليه ثم جلس فقال صلى الله عليه وسلم: عشر. ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله. فرد عليه. فجلس. فقال: عشرون ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد عليه فجلس. فقال: ثلاثون. [رواه أبو داود].

(١) تقال بصيغة الجمع وإن كان السلم عليه واحدا.

(٢) سورة النور الآية ٦١.

(٣) عشر: أى عشر حسنات.

هذه هي صيغة الإلقاء.

أما الجواب على هذا الترتيب :

• وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

• أو عليكم السلام ورحمة الله.

• أو وعليكم السلام.

ويصح أن يكون الجواب بصيغة الإفراد وإن كان الجمع أفضل.

٣ - حكم السلام:

السلام سنة مؤكدة، أما رده فهو فرض كفاية لازم لقوله تعالى:

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾<sup>(١)</sup>.

أى إذا سلم عليكم أحد محيياً، فواجب عليكم أن تردوا التحية بتحية مثلها أو أحسن منها.

أى إذا قال لكم أحد: السلام عليكم، فقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله... وهكذا.

- والأفضل أن يجعل أحسن رد للتحية لكرام الناس كالعلماء والفضلاء، ويرد عليها لمن

هم دونهم. ويجزئ تسليم الواحد عن الجماعة، كما يجزئ رد الواحد عنهم فإن الواحد يقوم

مقام الجميع. عن على عليه السلام قال:

«يجزئ عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم، ويجزئ عن الجلوس أن يرد أحدهم» .

[رواه أبو داود]

٤ - آداب السلام:

من آداب السلام: أن يسلم القادم على من يقدم عليهم، والراكب على المشى، والماشى على

القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير.

والسنة البدء بالسلام قبل الكلام كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة.

وسبب ذلك أن السلام أمان، ولا كلام إلا بعد الأمان.

وثبت عنه عليه السلام أنه كان يسلم على الصبيان والنساء.

ومن الأدب أن يسلم الإنسان على أهل بيته إذا دخل عليهم.

ويستحب السلام عند الانصراف كما يستحب عند اللقاء.

ومن الأدب إذا دخل بيته فلم يجد أحداً أن يقول:

«السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» .

(١) سورة النور الآية ٨٦.

وإذا كتب أحد كتاباً وفيه التحية بالسلام فيجب الرد فوراً، وكذا إذا أبلغته السلام، فيقول: عليك وعليه السلام.

فمن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال لي رسول الله ﷺ:

«هذا جبريل يقرأ عليك السلام» قالت: قلت: عليك وعليه السلام ورحمة الله وبركاته.

[ البخارى ]

وإذا سلم إنسان على آخر، ثم تلاقيا بعد افتراق - ولو قليلاً - فليسلم أحدهما على الآخر، ففى سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال:

« إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه، فإن حالت بينهما شجرة، أو جدار، أو حائط، ثم لقيه فليسلم عليه» وإذا سلم على أيقاظ، وبجوارهم نيام، فالسنة أن يخفض صوته بحيث يحصل سماع الأيقاظ، دون أن يستيقظ النيام، فقد كان ﷺ يسلم تسليماً لا يوقظ نائماً، ويسمع اليقظان (١).

٥ - الأحوال التى يكره فيها السلام :

- منها إذا كان المسلم عليه مشتغلاً بالبول أو الغائط أو الخلوة بأهله أو نحوهما.
- ولا يسلم على من كان نائماً أو ناعساً «فى بداية النوم» .
- ولا على من كان فى الحمام أو فى المراض أو فى أى مكان به نجاسة.
- ويكره السلام على المؤذن، كما يكره السلام على الآكل إذا كانت اللقمة فى فمه ولا يستحق المسلم جواباً فى هذه الحال.

وأما السلام على المشتغل بقراءة القرآن فقال الإمام أبو الحسن الواحدى: الأولى ترك السلام عليه لانشغاله بال تلاوة، فإن سلم عليه كفاه الرد بالإشارة.

ويرى النووى أنه يسلم عليه ويجب على القارئ الرد باللفظ، ثم يواصل القراءة، ومثله المشتغل بالدعاء المستغرق فيه. أ. هـ ملخصاً من الأذكار للنووى ص ٢٢٤.

٦ - حكم سلام الرجال على النساء والعكس:

- تسلم المرأة على المرأة مثل الرجل على الرجل. وكذلك المرأة مع المحارم، لها أن تسلم عليها ويجب الرد عليها، ولهم أن يسلموا عليها، ويجب الرد عليهم.
- وإن كانت المرأة أجنبية عجوزاً جاز السلام عليها، وكذلك إن كانت شابة اعتادت ملاقة الرجال وكلامهم لافتنة فى السلام عليها.

• أما إن كانت شابة جميلة يخاف الافتتان بها فلا يجوز سلام الرجال عليها، وإن سلم لا يستحق رداً، ولا يجوز لها أن تسلم عليه، وإن سلمت لاتستحق رداً، لأن الرد مكروه.

(١) بتصرف من كتاب إسلامنا/ السيد سابق.

• ويجوز تسليم جماعة النساء على جماعة الرجال وجماعة الرجال على جماعة النساء. والجماعة هنا تطلق على أكثر من واحدة، كما يجوز تسليم الواحد من الرجال على جماعة النساء، والواحدة من النساء على جماعة الرجال مادامت الفتنة مأمونة.  
عن أسماء بنت يزيد - رضى الله عنها - قالت:

«مر علينا رسول الله ﷺ فى نسوة فسلم علينا» [رواه الترمذى].  
وفى صحيح مسلم عن أم هانئ بنت أبى طالب - رضى الله عنها - قالت:  
«أتيت النبى ﷺ يوم الفتح وهو يغتسل، وفاطمة تستتره، فسلمت عليه، فقال: من هذه؟ قلت أم هانئ بنت أبى طالب. قال: مرحباً بأم هانئ»... إلى آخر الحديث.  
وقد ثبت زيارة أبى بكر وعمر لأم أيمن وسلامهما عليها بعد وفاة الرسول ﷺ كما جاء فى مسلم.

#### ٧ - المصافحة:

من تمام التحية المصافحة، وهى تستحب عند اللقاء مع بشاشة فى الوجه، فإن ذلك مما يزيد فى المودة والألفة بين الناس.  
روى البخارى، أن قتادة قال لأنس: أكانت المصافحة فى أصحاب رسول الله ﷺ قال: نعم، وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ:  
«ما من مسلمين يلتقيان، فيتصافحان، إلا غفر لهما قبل أن يفترقا» [رواه الترمذى].  
وعن الترمذى أيضاً قال:

كان النبى ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه، لا ينزع يده من يده، حتى يكون الرجل الذى ينتزع، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذى يصرفه، ولم ير مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له.

#### ٨ - السلام على أهل الكتاب:

ذهب جمهور العلماء إلى أنه لا يجوز ابتداء أهل الكتاب بالسلام لما رواه مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام».  
ويرى جماعة من أهل العلم جواز ابتدائهم بالسلام نقلاً عن ابن عباس.  
والذى عليه الجمهور هو الصواب؛ لأن البدء بالسلام إعزاز لمن تسلم عليه، وإظهار لحبه ومودته، وهؤلاء لا يجوز معهم شىء من ذلك، لأنهم ناصبوا المسلمين العداء، فإن سلموا لا يزيد المسلم فى الرد على كلمة «وعليكم».

فمن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم» [رواه البخارى].

واتفق العلماء على جواز ابتداء السلام على جماعة فيهم مسلمون وغير مسلمين كما فعل النبي ﷺ.

كما اتفقوا على جواز تحيتهم بغير السلام مثل: صبحك الله بالخير... ونحو ذلك<sup>(١)</sup>.

#### ٩- السلام على العصاة والمبتدعين:

العصاة الذين لم يتوبوا عن معاصيهم، والذين يضيفون إلى دين الله ما ليس منه، ويبتدعون بدعاً ليست من الإسلام فى شيء. لا يُسلم عليهم، ولا يرد عليهم السلام إذا سلموا، زجراً لهم ولغيرهم.

واستدل البخارى على ذلك بما روى فى قصة كعب بن مالك ورفيقه حين تخلفوا عن غزوة تبوك، ونهى رسول الله عن كلامهم، وكان كعب إذا سلم على الرسول لا يرد عليه السلام.

قال البخارى: وقال عبد الله بن عمر: لا تسلموا على شربة الخمر.

فإن اضطر إلى السلام على الظلمة ونحوهم، بأن دخل عليهم وخاف ترتيب مفسدة فى دينه أو دنياه أو غيرهما، إن لم يسلم، سلم عليهم<sup>(٢)</sup>.

#### ١٠- بدع يطلب تركها:

من ترك تحية الإسلام وتمسك بتحيات غير المسلمين تشبهاً بالغاقلين من المسلمين أو بالنصارى واليهود وغيرهم، فقد أخطأ وجانب الحق وبعد عن سبيل الرشاد، ووقع فى البدع التى نهانا رسول الله ﷺ عن وقوعها فيها.

ومثل التحيات غير المشروعة (صباح الخير)، (مساء الخير)، (نهارك سعيد) .. وغير ذلك من التحيات المستوردة من خارج التشريع الإسلامى، فلا ينبغى لمسلم أن يبدأ مسلماً بمثل هذه التحيات، ولمن يجوز له بعد أن يسلم على أخيه المسلم السلام الشرعى أن يقول له ما يريد من أمثال ما سبق ومن غيره مثل (كيف حالك) ..

ومن البدع أن تشير إلى أخيك المسلم بالسلام دون أن تنطق به، فإن بعض الناس إذا قابل مسلماً أشار إليه بيده واكتفى بذلك بدون ضرورة وذلك بدعة، أما إذا كان المسلم عليه بعيداً

(١) بتصريف من كتاب السلوك الاجتماعى فى الإسلام/ الشيخ حسن أيوب. ص ٣١٥.

(٢) انظر كتاب إسلامنا/ الشيخ سيد سابق، ص ٢٢٨.

فأشرت إليه ليرى أنك تحييه ونطقت مع الإشارة بالسلام، فإن ذلك لا بأس به مادام لا يسمعك، لأن الإشارة حينئذ دليل السلام وليست نائبة عنه، وكذلك يقال في الرد<sup>(١)</sup>.  
١١- تحية الأموات:

روى مسلم عن عائشة - رضی الله عنها - قالت: قلت يا رسول الله: كيف أقول إذا دخلت المقابر؟ قال: «قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمتأخرين، وأنا إن شاء الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية». .  
وقد صح عنه ﷺ أنه كان إذا زار أهل البقيع قال: «اللهم رب الأرواح الباقية، والأجسام البالية والشعور المتمزقة، والجلود المتقطعة، والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا وهى بك مؤمنة أنزل عليها روحاً منك وسلاماً منى». .

\*\*\*

(١) راجع كتاب السلوك الاجتماعي في الإسلام/ الشيخ حسن أيوب.

# الفصل (الساوس)

## الأمانة

الأمانة لغة: ضد الخيانة، ورجل أمين ومؤتمن بمعنى واحد.

واصطلاحاً:

قال الكفوى: الأمانة كل ما افترض الله على العباد فهو أمانة كالصلاة والزكاة والصيام وأداء الدين، وأوكدها الودائع، وأوكده الودائع كتم الأسرار، وقال: كل ما يؤتمن عليه من أموال وحرم وأسرار فهو أمانة.

١- الأمانة فى القرآن الكريم:

ذكر ابن الجوزى أن الأمانة فى القرآن الكريم على ثلاثة أوجه:  
أحدها: الفرائض: ومنه قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا مَحْزُونَا اللَّهُ وَالرَّسُولَ وَمَحْزُونَا  
أَمَنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

الثانى: الوديعه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا أَلْمَنَتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾<sup>(٢)</sup>  
الثالث: العفة و «الصيانة» ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾<sup>(٣)</sup>.

٢- حقيقة الأمانة ومفهومها:

للأمانة معنيان خاص وعام.

أما الخاص فهو أن يرد الشخص المال أو المتاع أو غيرهما إلى من انتمنه عليه، لأنه حفيظ على هذا الشيء، راع له، ليس من حقه أن يتصرف فيه. فإذا ما طلبه صاحبه سارع برده إليه. وأما العام فيتسع لأكثر من هذا، فيشمل كتمان السر، وإخلاص المشورة للمستشير، وصدق التبليغ فيما كلف الشخص أن يبلغه، كما أنها تشمل التكليف الشرعية عموماً من صلاة وزكاة وطهارة.

فالذى يستودعك سراً واثقا بك، مطمئنا إلى كتمانك، فأنت على سره أمين. والذى يكلفك تبليغ خبر إلى آخر، قد اختارك للتبليغ عنه، فإذا ما أديت الرسالة صحيحة فأنت أمين.

(١) سورة الأنفال الآية ٢٧.

(٢) سورة النساء الآية ٥٨.

(٣) سورة القصص الآية ٢٦.

والذى يستشيرك يفضى إليك بما فى نفسه وينتظر منك أن تبدى له رأيك صريحاً وإن خالفه ، فإن فعلت فأنت أمين .

وهكذا ترتبط الأمانة فى معناها العام وفى معناها الخاص بعدة فضائل كالصدق والصبر والشجاعة والعفة والوفاء والعدل (١) .

وقد أمر الله تعالى برد الأمانة ، وامتدحها ، وعقب على هذا الأمر بالتخويف من الخيانة ، لأنه سبحانه يسمع ما يقال ، ويرى ما يفعل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (٣)

وذكر فى وصف المؤمنين ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴾ (٣)

٣ - أهمية التحلى بخلق الأمانة:

الأمانة فضيلة من الفضائل التى لا يستغنى عنها الإنسان فى معركة الحياة ، ليصل إلى غاياته المرجوة منها ، ويحقق آماله المنشودة فيها .

كما أن الجماعة لا يمكن أن ترسى قواعدها على دعائم ثابتة ، ولا تشيد بناء حياتها المتين إلا إذا اتصفت بالأمانة وحافظت عليها .

وإننا لنشاهد الفرق واضحاً بين رجلين : أمين وخائن .

فالأول موضع ثقة الناس واحترامهم ، والخائن مناط سخطهم واحتقارهم .

ونتيجة لذلك أن ينجح الأول ، بينما يخفق الثانى .

وقد أدركت الأمم أثر التحلى بهذا الخلق فى حياتها ، فعملت على تنميته ، والاتصاف به فبلغت بذلك شأنا بعيدا فى الحضارة والرقى (٤) .

٤ - الأمانة من أخلاق الرسل:

الأمانة من أبرز أخلاق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب - فى سورة الشعراء - يخبرنا الله عز وجل أن كل رسول من هؤلاء قد قال لقومه :

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

ورسولنا محمد ﷺ كان فى قومه قبل الرسالة وبعدها مشهوراً بأنه أمين وكان الناس يختارونه

(١) انظر من أخلاق النبى / د. أحمد محمد الحوفى .

(٢) سورة النساء الآية ٥٨ .

(٣) سورة الماعز الآية ٣٢ . وسورة «المؤمنون» الآية ٨ .

(٤) راجع كتاب إسلامنا/ الشيخ سيد سابق .

لحفظ ودائعهم عنده، ولما هاجر ﷺ وكل على بن أبى طالب ليقوم برد الودائع إلى أصحابها.  
وجبريل عليه السلام أمين الوحي، وقد وصفه الله بذلك فى قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّكُمْ لَنْزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾<sup>(١)</sup>

ولولا صفة الأمانة فيه لما حصلت فيه الثقة بما يبلغ عن الله من شرائع ولما اصطفاه الله لحمل رسالاته إلى رسله من البشر.

وكذلك حال الرسل من البشر، لولا صفة الأمانة فيهم لما حصلت الثقة بما يبلغون عن ربهم، ولما اصطفاهم الله لحمل رسالاته للناس<sup>(٢)</sup>.

#### ٥ - المجالات التى تدخل فيها الأمانة:

والمجالات التى تدخل فيها الأمانة والخيانة كثيرة منها المجالات الآتية:

– الأموال – الأعراض – الأجسام والأرواح – المعارف والعلوم  
– الولاية – الشهادة – القضاء – الكتابة – الأسرار  
– الرسائل – السمع والبصر وسائر الحواس.. إلى غير ذلك من أمور.

والأمانة كلمة واسعة المدلول تتسع لجميع العلاقات.

فالتزام الإيمان وتعهدته بأسباب النماء والبقاء أمانة، وإخلاص العبادة لله أمانة، وإحسان المعاملة مع الأفراد والجماعات أمانة، وإعطاء كل ذى حق حقه أمانة، وقد جاءت النصوص من القرآن والسنة وافية بهذا كله.

● وفى مجال الإيمان والعبادة يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾<sup>(٣)</sup>

● وفى مجال الحكم يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾<sup>(٤)</sup>

● وقد روى مسلم عن أبى ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملنى؟

فضرب بيده على منكبى، ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذى عليه فيها».

(١) سورة الشعراء الآية ١٩٢ - ١٩٤.

(٢) يتصرف من كتاب الأخلاق الإسلامية/ عبد الرحمن حسن حنبله.

(٣) الأحزاب الآية ٧٢.

(٤) سورة النساء الآية ٥٨.

وقد روى البخارى أنه صلوات الله وسلامه عليه قال :

«إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» .

قيل يا رسول الله وما تضييع الأمانة؟

قال : «أن يوسد الأمر إلى غير أهله» .

• والودائع من أعظم الأمانة التى يجب حفظها وردها إلى أصحابها.

قال تعالى : ﴿ فَلْيُؤَدِّ الْأَذَىٰ أَوْثَمِنَ أَمْنَتِهِ ۗ وَلَسِيَ اللَّهُ رَيْبَهُ ۗ ﴾<sup>(١)</sup>

ويقول الرسول ﷺ : «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» [أخرجه الدارقطنى] .

• وعن المجالس والحديث فيها يقول ﷺ : المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس سفك دم

حرام.. أو فرج حرام.. أو اقتطاع مال بغير حق» [رواه أبو داود] .

إلى غير ذلك من مجالات<sup>(٢)</sup> .

## ٦ - الدعوة إليها:

لخطورة الأمانة ولعظم شأنها دعا الإسلام إليها وحبب فيها وأمر بها فقال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ۗ ﴾<sup>(٣)</sup>

وهى إحدى صفات المؤمنين الذين يرثون الفردوس

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> .

والتجرد عن هذه الفضيلة يسلب الإنسان جميع الفضائل وينظمه فى عداد المنافقين.

عن على ؓ قال : كنا جلوسا مع رسول الله فطلع علينا رجل من أهل العالية، فقال :

يا رسول الله أخبرنى بأشد شيء فى هذا الدين وأليئته؟

فقال : «أليئته شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وأشدده يا أبا العالية

الأمانة، إنه لا دين لمن لا أمانة له، ولا صلاة له ولا زكاة له» [رواه البزار] .

ولهذا كله كان رسول الله يقول : «اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه ينثس الضجيع، وأعوذ

بك من الخيانة فإنه ينثس البطانة» [أبو داود] .



(١) سورة البقرة الآية ٢٨٣ .

(٢) انظر تفاصيل هذه المجالات كتاب الأخلاق الإسلامية وأسرها/ عبد الرحمن حنبكة وكتاب إسلامنا/ الشيخ

سيد سابق.

(٣) سورة النساء الآية ٥٨ .

(٤) سورة المؤمنون الآية ٨ .

## الفصل السابع

### الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

#### ١- منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال النووي رحمه الله: اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيع أكثره من أزمان بعيدة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا شيء قليل جداً، وهو باب عظيم، به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبيث عم الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك الله أن يعمهم بعقابه، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.  
القطب الأعظم:

قال الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله - «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو القطب الأعظم في الدين، وهو السبب الذي ابتعث الله له النبيين، ولو طوى بساطه، وأهمل عمله وعلمه، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، وقد كان الذي خفنا، فإننا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب علمه وعمله، وقل على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم»<sup>(٢)</sup>.

#### ٢- فضله وأهميته:

قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضتان لازمتان لحفظ المجتمع المسلم وسلامته من الآفات والأمراض والمعاصي التي تفتك بالأمة، وتقضى على مقوماتها، وتصل بها في النهاية إلى الهلاك والدمار.

وقد ذكر القرآن الكريم أمما كثيرة لعبت بها الأهواء وحكمتها الشهوات، واستحكمت فيها الذنوب حتى لم تستطع أن تتخلص منها، فصارت الذنوب أشبه بالحيوانات المتوحشة،

(١) سورة النور الآية ٦٣.

(٢) بتصرف من إحياء علوم الدين للغزالي (٢ / ٣٠٦).

(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٤.

ففضى الله فيها أن أبادها وأزالها من الوجود وأبقى القلة المؤمنة لتبدأ من جديد عهداً جديداً  
ملئنا بروح الإيمان بالله، وبروح الطهر والعفاف والتماسك الخلقى.

وعن إفساد بنى إسرائيل وتماديهم فى المنكرات قال الله تعالى:

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل، فيقول: يا هذا...  
اتق الله ودع ماتصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون  
أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال:  
كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على  
الحق أطراً» [رواه أبو داود] قوله: ولتأطرنه: أى لتردنه إلى الحق.

### ٣- شروط وآداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الذى يقوم بين الناس ليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر يشترط فيه شروط لابد من  
توفرها، وآداب لابد من مراعاتها، كما أن ما ينبغى إنكاره له شروط أيضاً لابد من استيفائها،  
وتوضيح هذا الإجمال كما يلي:

#### شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر<sup>(٢)</sup>:

- يشترط فى الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون مكلفاً أى بالغاً.
- كما يشترط أن يكون مؤمناً، لأن النهى عن المنكر نصره للدين، ولاتكون النصره إلا من  
المؤمنين، وغير المؤمن لاسلطان له على المؤمنين.
- القدرة، وشرط القدرة منصوص عليه فى الحديث: «فإن لم يستطع فبلسانه...» ولا يخفى  
أن العاجز ليس عليه القيام بالأمر والنهى، ولكن عليه أن ينكر بقلبه فقط.

قال ابن مسعود رضي الله عنه:

«جاهدوا الكفار بأيديكم، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفروا فى وجوههم فافعلوا» .  
وتعنى القدرة تحمل ما يصيبه إذا أمر أو نهى، وهذا موضوع متفرع خلاصته:  
إنه إن كان يعلم أنه إن تكلم وأمر ونهى لا ينفع كلامه ويضرب ويهان فإنه لا يجب عليه  
الأمر والنهى، ولكن يلزمه ألا يحضر مواضع المنكر إلا أن تكون هناك ضرورة، كضرورة  
الأسواق والمستشفيات، وركوب المواصلات العامة، والسير فى الشوارع - فإنها الآن مليئة  
بالنساء المتبرجات - ولاغنى للإنسان عن الوجود فيها.

(١) سورة المائدة الآية ٧٩.

(٢) بتصرف من السلوك الاجتماعى فى الإسلام/ الشيخ حسن أيوب.

وبقى شرطان آخران مختلف عليهما وهما العدالة، وإذن الإمام.

آداب الأمر النهائى:

للأمر بالمعروف النهائى عن المنكر آداب ينبغى التحلى بها ونحن نذكرها مجملة وهى ثلاثة:  
أولها: العلم: فعلى من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون مُلمّاً بما يأمر به وينهى  
عنه من جهة الأحكام والأدلة.. ومن أمر ونهى بغير علم أفسد أضعاف ما يصلح.  
ثانيها: السورع: لأن الورع يجعله يعمل بما يعلم، ويقف عند حدود الله فى أمره ونهيه  
بغير غرور أو اعتداء بغير حق، كما أن الورع يجعله يعامل الناس بالحسنى والتلطف مع  
رقة العبارة، وسماحة الوجه.  
ثالثها: حسن الخلق: وهو أساس هذا الموضوع كله، فإن سيئ الخلق يضر أكثر مما ينفع.  
شروط ما يجب إنكاره:

الذى يجب إنكاره هو الأمر الذى استوفى أربعة شروط هى:

الشرط الأول:

كونه منكراً ممنوعاً شرعاً سواء كان من الصغائر أم من الكبائر، لأن المعاصى كلها مفسدة  
للأمة، ومضیعة للدين، ومتسببة فى عذاب الله يوم القيامة.

الشرط الثانى:

وهو أن يكون موجوداً فى الحال (أى متلبساً به) ، وذلك بأن يرى شارب الخمر، أو من  
يغازل النساء، ومن يزاحمهن متعمداً، أو من يعلن منكراً من المنكرات، فإن الواجب هو  
الإنكار فى هذه الحالة أى حالة إظهاره المنكر.

أما من فعل المنكر وانتهى ولا يذكره، فإنه لا يجب الإنكار عليه لاحتمال أنه تاب ورجع إلى الله،  
فإن تكلم فى المنكر معلناً عن نفسه أو مفتخراً فإن ذلك منكراً آخر يجب الإنكار على فاعله.

الشرط الثالث:

أن يكون المنكر ظاهراً أمام المنكر بغير تجسس، فكل من عصى ربه وستر معصيته فى داره  
وأغلق على نفسه بابها، لا يجوز أن يتجسس عليه، لأن الله تعالى نهى عن التجسس، كما  
لا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لمعرفة المعصية إلا أن يظهر المنكر فى الدار ظهوراً يعرف من  
خارجها، كما لو ارتفعت أصوات السكارى بالكلمات المألوفة بينهم.

الشرط الرابع:

أن يكون منكراً معلوماً بغير اجتهاد (أى مجمعا عليه) ، وذلك بأن يكون معلوماً بالنص

الذى لا يقبل التأويل، أما ما كان منكراً عند بعض العلماء وليس منكراً عند البعض الآخر فالإنكار فيه غير واجب، لأن الاحتمال قائم.

٤- درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

للقيام بواجب الأمر والنهي مراتب يطلب معرفتها ليكون الأمر والناهي على بصيرة، وهي:  
أولاً: التعريف:

وذلك بأن يبين للمخاطب الحكم الشرعى فيما أخطأ فيه، ويبين لفاعل المنكر حكم الله فيه وما يجب عليه، فإن كثيراً من الناس لا يعلمون الأحكام الشرعية فى الأمور البديهية، ولو علموها لوقفوا عندها، وذلك كالذى لا يحسن الركوع والسجود فى صلاته أو لا يحسن الوضوء، فإن المطلوب تعريفه باللين واللفظ، ولا يفهمه أنه جاهل، فإن هذا يعتبر إيذاء محرماً، وما أكثر المنكرين الذين ينكرون على غيرهم ترك سنة فيقعون فى عدة محرمات، مثل احتقارهم لغيرهم، وغرورهم بأنفسهم، وإيذاء أخيهم المسلم، وغيبته بعد تركه لهم. والذى يمنع المنكر بمنكر كالذى يغسل الدم بالبول، وما أقدح هذا.  
ثانياً: النصح والوعظ:

ويكون ذلك لمن يقدم على المنكر وهو عالم بأنه منكر، فينبغى أن ينصح ويخوف بالله تعالى وعقابه ولقائه وحسابه، وتذكر له الأخبار الواردة بالوعيد فيما يفعل وهكذا، وليحذر الواعظ أن يقصد بوعظه ونصحه إذلال غيره بالجهل، وإعزاز نفسه بالعلم. فإن ذلك يهلكه ويجعله كمن ينفذ غيره من النار بإحراق نفسه عمداً.  
ثالثاً: الزجر والتعنيف بالقول الغليظ :

وذلك يكون عند العجز عن المنع عن المنكر باللين واللفظ، وظهور دلائل الإصرار على الذنب، أو يستهزئ بالواعظ والناصح له، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام ﴿أَفَلَا تَكْزُمُونَ﴾ (١) تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٧) ﴿١﴾.

وهذه الرتبة لا يقدم عليها إلا عند الضرورة، وعدم إفادة الرتبة التى قبلها. ولا ينطق عند التعنيف إلا بالصدق ولا يزجر إلا بالألفاظ العامة مثل يا أحمق، يا جاهل، وما يجرى هذا المجرى، ويقتصد فى هذا ولا يسترسل.

رابعاً: التغيير باليد:

مثل كسر آلة المنكر وإراقة الخمر وكسر التماثيل، وإخراج من جلس فى المسجد جنباً

(١) سورة الأنبياء الآية ٦٧.

ونحو ذلك، وفي هذا يقتصر على القدر المطلوب فقط، فلا يخرج الرجل الجنب من المسجد بجره من رجليه أو شده من أذنيه مثلاً، وهكذا، ولا يلجأ الإنسان إلى هذا والذي قبله إلا إذا كان آمناً من حدوث ما هو أشد، وكان الوضع يسمح بذلك، وإلا فلا. هذا، وليس للولد مع أبيه ولا للزوجة مع زوجها، ولا للخادم مع سيده إلا استخدام التعريف والوعظ فقط من الرتب السابقة<sup>(١)</sup>.



---

(١) يتصرف من السلوك الاجتماعي في الإسلام/ الشيخ حسن أيوب.

## أمثلة من شجاعة العلماء فى النهى عن المنكر

● روى أن معاوية رضي الله عنه حبس العطاء (المرتبات) عن الناس، فقام إليه أبو مسلم وقال له: يامعاوية إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك ولا من كد أمك.  
قال: فغضب معاوية ونزل عن المنبر وقال: مكانكم، وغاب عن أعينهم زمناً ثم خرج عليهم وقد اغتسل، فقال: إن أبا مسلم كلمنى بكلام أغضبنى، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليغتسل» [أبو داود].

وإنى دخلت فاغتسلت، وصدق أبو مسلم، إنه ليس من كدى ولا من كد أبى فهلما إلى عطائكم..

وعن سفيان الثورى قال: أدخلت على أبى جعفر المنصور . بمنى.

فقال لى: ارفع إلينا حاجتك.

فقلت له: اتق الله فقد ملأت الأرض ظلماً وجوراً

قال فطأطأ رأسه ثم رفعه، فقال ارفع إلينا حاجتك.

فقلت: إنما أنزلت هذه المنزلة بسيفوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعاً، فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم..

فطأطأ رأسه ثم رفعه فقال: ارفع إلينا حاجتك.

فقلت حج عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال لخازنه كم أنفقت؟

قال: بضعة عشر درهماً، وأرى هاهنا أموالاً لاتطيق الجمال حملها...

● وحكى أن (حطيطا الزيات) جيئ به إلى الحجاج فلما دخل عليه قال له الحجاج: أنت

حطيط؟

قال: نعم، سل عما بدا لك، فإنى عاهدت الله عند المقام - على ثلاث خصال:

إن سئلت لأصدقن، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوفيت لأشكرن.

قال له الحجاج: فما تقول فى؟

قال: أقول إنك من ألد أعداء الله فى الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة.

قال له الحجاج: فما تقول فى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟

قال: أقول: إنه أعظم جرماً منك وإنما أنت خطيئة من خطاياها.  
فغضب الحجاج وقال ضعوا عليه العذاب، فانتهى به العذاب إلى أن شقق له القصب وجعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصباً قصباً حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئاً، ف قيل للحجاج إنه في آخر رمق.

قال: أخرجوه فارموا به في السوق.. ثم مات، وكان ابن ثمانى عشرة سنة رحمه الله (١).  
أمثلة من رفق العلماء وحكمتهم فى النهى عن المنكر

• من ذلك ما استدل به المأمون العباسى إذ وعظه واعظ وعنف له فى القول، فقال له:  
يا رجل أرفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر منى فقال تعالى: ﴿فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا نَسِيًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٢).

• وروى أبو أمامة أن غلاماً شاباً أتى النبى ﷺ فقال: يا نبى الله أتأذن لى بالزنا؟ فصاح الناس به. فقال النبى ﷺ قريوه، ادن، فدنا حتى جلس بين يدى النبى ﷺ فقال النبى ﷺ «أتحبه لأمك؟» فقال لا جعلنى الله فداك. قال كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، «أتحبه لابنتك؟» قال: لا جعلنى الله فداك. قال كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، «أتحبه لأختك؟» زاد ابن عوف حتى ذكر العممة والخالة وهو يقول فى كل واحد: لا جعلنى الله فداك وهو ﷺ يقول: «كذلك الناس لا يحبونه».. فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: «اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه. وحصن فرجه» فلم يكن شىء أبغض إليه منه، يعنى الزنا [رواه أحمد].

وقال حماد بن سلمة: إن (صلة بن أشيم) مر عليه رجل أسبل إزاره - أى طال ثوبه - فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة. فقال لهم: دعونى. أنا أكفيكم. فقال له: يا ابن أختى إن لى إليك حاجة، قال وما حاجتك يا عم؟ قال له: أحب أن ترفع من إزارك، فقال: نعم وكرامة، فرفع إزاره. فقال لأصحابه لو شتمتموه لقال لكم: لا ولاكرامة، وشمكم (٣).



(١) بتصرف من إحياء علوم الدين ٥١٣/٢٥ .

(٢) سورة طه الآية ٤٤ .

(٣) انظر بتوسع كتاب السلوك الاجتماعى فى الإسلام/ الشيخ حسن أيوب.

## الفصل الثامن

### الإنفاق والصدقة في سبيل الله

#### ١ - الصدقة وأسرارها الاجتماعية:

الإنسان يحب المال بطبعه، وهذا الحب يدعو صاحبه إلى البخل والحرص والجشع، والأنانية، والأثرة، وسائر الرذائل الخلقية.

وهذه الصفات - اللا أخلاقية - تنزل بالإنسان إلى مستوى الحيوان. ولا يتخلص المرء من هذه الرذائل، إلا بالتمرين على البذل، والدربة على العطاء، ومن ثم كانت الزكاة ضريبة إجبارية لا يستطيع المرء أن يتخلص منها. وإلى هذه المعاني تشير الآية الكريمة:

﴿حَذِّمْنَ أَمْوَالَهُنَّ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (١).

والفقراء يمثلون أكثرية من أفراد المجتمع، ولا بد من رعاية هؤلاء المساكين والعجزة والضعفاء والمحافظة على إنسانيتهم وكرامتهم، ولا سبيل إلى ذلك إلا بإخراج جزء معلوم من أموال الأغنياء، حتى يكفى هؤلاء ليصبحوا أعضاء نافعين ومواطنين صالحين.

بالإضافة إلى ذلك فإن الجماعة التي ينتشر فيها الفقر، وينشب أنيابها فيها تشتعل فيها العداوة والبغضاء، فيهتز كيان الأمة بما يشيع فيها من تقاطع ولا سبيل للقضاء على شرور الفقر إلا بإخراج حق الفقراء ونصيبهم الذي فرضه الله لهم وجعله أمانة في يد الأغنياء، ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَخِّلِينَ فِيهِ﴾ (٢).

ثم إن الزكاة تقوى الصلات بين الأغنياء والفقراء، وتجعل منهم أسرة واحدة متعاونة على الخير فضلاً عن تنمية المال، وتقوية الأواصر وهي الضمان الاجتماعي الذي يكفل التوازن بين الطبقات، وهي أفضل وسيلة لتوزيع المال، فهي في الوقت الذي لا يضيق بها الغني، ترفع مستوى الفقير إلى حد الكفاية، وتجذبه شظف العيش، وألم الحرمان (٣).

#### ٢ - مفهوم الصدقة:

الصدقة في المفهوم الإسلامي لا تنحصر في عطاء المال، وإطعام الطعام، وكسوة الثياب، وتقديم الدواء والسكن، ونحو ذلك، بل هي أعم وأشمل، فكل معروف صدقة.

(١) سورة التوبة الآية ١٠٣.

(٢) سورة الحديد الآية ٧.

(٣) يتصرف من إسلامنا/ الشيخ سيد سابق ص ١٠٨.

روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «كل معروف صدقة». وبهذا المفهوم الموسع يستطيع الفقراء أن يجدوا مجالات كثيرة - غير المال - يصنعون بها المعروف للناس، ابتغاء مرضاة الله، فيكسبون بها صدقات ينافسون فيها بانزلى أموالهم من الأغنياء. وروى البخارى ومسلم - أيضا - عن أبى موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «على كل مسلم صدقة».

قالوا: فإن لم يجد؟

قال: «فليعمل بيديه، فينفع نفسه ويتصدق».

قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟

قال: «فيعين ذا الحاجة الملهوف».

قالوا: فإن لم يفعل؟

قال: «فيأمر بالخير».

قالوا: فإن لم يفعل؟

قال: «فيمسك عن الشر فإنه له صدقة».

ولقد يبدو ظاهرا أن يكون بذل الجهد للآخرين من الصدقات، فبذل الجهد على سبيل المعونة بغية مسرة صاحب الحاجة مثل مواساته بالمال، وبذل الجهد لإمالة الأذى عن الطريق معونة عامة ينتفع منها كل سالك فيه. وبذل الجهد لفعل خير عام هو أيضا معونة عامة تدخل فى مفهوم الصدقات بلا إشكال.

وبهذا المعنى الموسع للصدقات يدخل فى مفهومها كلام عطاء أو بذل تستفيد منه البهائم وسائر الحيوانات، وقد جاء هذا مصرحا به فى كلام الرسول ﷺ.

روى البخارى ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة، إلا كانت له صدقة». وفى رواية لمسلم عن جابر: «وما سرق منه له صدقة»<sup>(١)</sup>.

### ٣ - فضل الصدقة:

قال صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا طيبا - إلا كان الله أخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فصيلة حتى تبلغ التمرة مثل أحد» [أخرجه البخارى].

وقال صلى الله عليه وسلم:

«كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس» [أخرجه البخارى].

(١) بتصروف من الأخلاق الإسلامية وأسسها/ عبد الرحمن حنيفة.

وقد قال صلى الله عليه وسلم - يوماً - لأصحابه «تصدقوا» .

فقال رجل: إن عندى ديناراً، قال أنفقه على نفسك.

فقال: إن عندى آخر، قال: أنفقه على زوجتك.

قال: إن عندى آخر، قال: أنفقه على ولدك.

قال: إن عندى آخر، قال: أنفقه على خادمك.

قال: إن عندى آخر، قال صلى الله عليه وسلم: «أنت أبصر به» . [أخرجه أبو داود].

وقال عمر بن عبد العزيز: الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه.

وقال ابن أبي الجعد: «إن الصدقة لتدفع سبعين باباً من السوء، وفضل سرها على علانياتها بسبعين ضعفاً، وإنها لتفك لحيى سبعين شيطانا.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن رجلاً عبد الله سبعين سنة، ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله، ثم مر بمسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله له ذنبه، ورد عليه عمل السبعين سنة» .

٤ - فى فضل الإنفاق على الأهل والعيال والداية:

روى مسلم عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«أفضل دينار ينفقه الرجل، دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته فى سبيل الله ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله» .

وروى البخارى ومسلم عن سعد بن أبى وقاص أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له:

«وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل فى فى امرأتك» أى فى فى امرأتك.

وروى مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رغبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك» .

فى جملة هذه الأحاديث يربى الرسول صلى الله عليه وسلم فى المسلمين خلق حب العطاء، فيحثهم على الإنفاق ابتغاء مرضاة الله، سواء أكان إنفاقاً على الأهل والعيال والأقربين، أم إنفاقاً على الدابة، أم إنفاقاً على الأصحاب والإخوان، أم فى أى وجه من وجوه الخير.

وأبان الرسول صلى الله عليه وسلم أن الأجر على الإنفاق ليس خاصاً فى الإنفاق على الفقراء والمساكين وذوى الحاجات والجهاد فى سبيل الله ونحو ذلك، بل هو عام فى كل إنفاق يبتغى به وجه الله تعالى حتى ما يصنعه الرجل فى فى امرأته. ولكن اغتنام الأجر رهن باحتسابه عند الله تعالى، أى ابتغاء مرضاته فيه، وطلب ثوابه عز وجل، فما أعظم نعم الله تعالى على المسلم.

٥ - من قصص الذين نالوا البر في العطاء:

● روى البخارى ومسلم عن أنس قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء<sup>(١)</sup> وكانت مستقبلة المسجد، وكان الرسول ﷺ يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها. قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا مَحْبُورٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن الله تعالى يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا مَحْبُورٌ﴾ وإن أحب مالى إلى بيرحاء، وإنها صدقة لله تعالى، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ» ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت وإنى أرى أن تجعلها في الأقربين».

فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه.

● وروى أن عمر بن الخطاب، كتب إلى أبى موسى الأشعري أن يشتري له جارية من سبى «جلولاء» يوم فتحت مدائن كسرى، فلما جاءت إليه أعجبتة فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا مَحْبُورٌ﴾. فاعتقها ابتغاء مرضاة الله تعالى، وطلباً لمرتبة البر فى الإنفاق.

● وروى فى أخبار عمر بن عبد العزيز، أنه كانت لزوجته جارية بارعة الجمال، وكان عمر راغباً فيها، وكان قد طلبها منها مراراً، فلم تعطه إياها. ثم لما تولى عمر الخلافة، جاءت زوجته فزينت الجارية أحسن زينتها، وأرسلتها إليه، وقالت له: قد وهبتكها يا أمير المؤمنين، فلتخدمك. قال عمر بن عبد العزيز لزوجته: من أين ملكتها؟

قالت: جنئت بها من بيت أبى عبد الملك، ففتش عن كيفية تملك عبد الملك لها. ف قيل له: إنه كان على فلان العامل ديون، فلما توفى أخذت من تركته ففتش عن حال العامل، وأحضر وراثته وأرضاهم جميعاً بالمال. ثم توجه للجارية وكان يهواها هوى شديداً فقال لها: أنت حرة لوجه الله تعالى.

فقال له زوجته: لم فعلت هذا يا أمير المؤمنين، وقد أزحت عن أمرها كل شبهة.

فقال لها: لست إذن ممن نهى النفس عن الهوى.

(١) بيرحاء: اسم لحديقة جيدة من نخل وكانت لأبى طلحة.

(٢) سورة آل عمران الآية ٩٢.

## ٦ - بيان إخفاء الصدقة وإظهارها:

لما كان للصدقة وجهان.

الوجه الأول: أن يكون بذل الصدقة بصفة علنية.

الوجه الثاني: أن يكون بذل الصدقة بصفة سرية.

قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾<sup>(١)</sup>.

فدللت هذه الآية على أن في كل من إبداء الصدقة وإخفائها خيراً؛ إلا إن دفعها بصفة خفية خير وأفضل عند الله، وبه يكفر الله سيئات المنفق في سبيله، ولكن يشترط في إبداء الصدقة إخلاص النية وعدم تسرب الرياء إلى القلب، لأن مراعاة الناس في العمل محبطة للعمل بمقدار نسبة الرياء.

وامتاز إخفاء الصدقة على إبدائها بفضل الأجر عند الله، وبتكفيره من سيئات المنفق، لأمر منها ما يلي:

أولاً: لأن إخفاء الصدقة أكثر دلالة على الإخلاص في ابتغاء مرضاة الله من إعلانها، وأبعد عن تسرب الرياء إلى قلب المنفق.

جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن أحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

ثانياً: لأن في إخفاء الصدقة سترًا لحال أخذ الصدقة، فكثير من الفقراء مستورى الحال يؤلمهم جداً أن يعلم الناس بفقرتهم وحاجتهم إلى أخذ الصدقات، وقد يؤثر بعضهم الجوع والفاقة على سد الحاجة عن طريق أخذ الصدقات المعلنة.



(١) سورة البقرة الآية ٢٧١.

## الفصل التاسع

### بر الوالدين

إن حق الوالدين على الولد هو أجل الحقوق وأعظمها بعد حق الله تعالى، لأن الله إذا كان هو الخالق الحقيقي للولد، فإن الوالدين هما مصدر هذا الخلق وسببه المباشر، ولأنهما بذلا من التضحيات والجهود من أجل تربية الأولاد، وإعدادهم للحياة ما يستحقان المكافأة عليه. وهذه الحقوق الواجبة على الأولاد لآبائهم، تتمثل في بر الآباء، والإحسان إليهم، والأدب معهم، وطاعتهم بالمعروف.

وقد جاء الإسلام داعيا الأولاد إلى النهوض بهذه الحقوق نحو آبائهم ولافتا أنظارهم إلى القيام بها، ليكونوا بروة مستحقين لبر الله ومثوبته.

فعن ابن مسعود قال: سألت النبي ﷺ:

«أى العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أى؟ قال: بر الوالدين. قلت:

ثم أى؟ قال: الجهاد فى سبيل الله» [رواه البخارى ومسلم].

ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا يَلْفَنَ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرًا وَمَا أَقْرَبَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٣٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ (١)

وقد تضمنت هذه الآيات:

١ - الأمر بالإحسان إلى الوالدين مقابل إحسانهما إلى الولد، واقتران ذلك بالأمر بالعبادة والتوحيد.

٢ - والنهي عن نهرهما بغلظة وزجرهما بخشونة، وعن كل ما يسوء إليهما ولو بكلمة «أف» الدالة على الضجر والتبرم، فما بالك بغيرها.

٣ - وعلى الأولاد أن يتخيروا فى مخاطبة آبائهم أجمل الكلمات، وألطف العبارات.

٤ - وعليهم أن يتذللوا لآبائهم ويخفصوا جناح الذل لهم رحمة بهم وتعطفوا عليهم.

٥ - ومن حقهم كذلك أن يدعوا الله لهم أن يظلمهم برحمته التى وسعت كل شىء، وأن يقول الولد فى دعائه لوالديه: «رب ارحمهما كما ربياني صغيرا» .

وعموما فالوالدان من أراضهما فقد أرضى الله تعالى، ومن أسخطهما فقد أسخطه، ومن

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ - ٢٤.

برهما وأحسن إليهما فقد شكر ربه، ومن أساء إليهما فقد كفر بنعمته، وهما الباب الموصل إلى الجنة، فمن برهما وصل، ومن عقهما منع.

## ١ - من صور بر الوالدين:

أورد القرطبي - رحمه الله - في تفسيره كلامًا كثيرًا مفاده:

• - أن الله أمر بعبادته وتوحيده، وجعل بر الوالدين مقرونًا بذلك، كما قرن شكرهما بشكره، فقال: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْعًا وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾<sup>(١)</sup>.

وقال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾<sup>(٢)</sup>.

• من البر بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسبهما ولا يعقهما.

• لا يختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين، بل يبرهما ولو كانا كافرين.

• من الإحسان إليهما والبر بهما - إذا لم يتعين الجهاد - ألا يجاهد إلا بإذنها.

• ومن تمام البر صلة أهل الوالدين، وكان صلى الله عليه وسلم يهدى لأصدقاء خديجة برًا

بها ووفاء لها وهى زوجته - رضى الله عنها، فما ظنك بالوالدين<sup>(٣)</sup>.

• خص رب العزة حالة الكبر لأنها الحالة التى يحتاجان فيها إلى بره، لتغيير الحال

عليهما بالضعف والكبر، فهما يحتاجان إليه فى الكبر كما كان يحتاج إليهما فى الصغر.

• أن يتلطف معهما بقول لين لطيف كريم، وأن يجعل نفسه مع أبويه فى خير ذلة فى

أقواله وأفعاله وسكناته فهذا من بر الوالدين.

• ومن برهما الترحم عليهما والدعاء لهما، وأن ترحمهما كما رحماك. وترفق بهما كما رفقا

بك، إذ ولياك صغيرا، جاهلا، محتاجا، فأثراك على أنفسهما، وسهرا ليلهما، وجاعا وأشبعاك،

وتعريا وكسواك، فلا تجزهما إلا ببرهما وطاعتهما، وحين يبلغان من الكبر الحد الذى كنت

فيه من الصغر، فعليك أن تلى منهما ما وليا منك، ويكون لهما حينئذ فضل التقدم<sup>(٤)</sup>.

## ٢ - النهى عن العقوق:

وقد نهى الإسلام عن عقوق الوالدين، وجعله من أكبر الكبائر.

عن أبى بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة

الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت» [رواه البخارى].

(١) سورة النساء الآية ٣٦.

(٢) سورة لقمان الآية ١٤.

(٣) بتصرف من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥٥/١٠).

(٤) انظر بصائر نوى التميز للفيروزابادى (٢١١/٢).

ومن العقوق أن يتسبب الإنسان في شتم والديه وسبهما.  
قال رسول الله ﷺ: «من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا يا رسول الله: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه» [رواه البخارى ومسلم].

### ٣ - حق الأم في البر أكثر من الأب:

عن أبى هريرة ؓ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال:  
«يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟  
قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك.  
قال: ثم من؟ قال: أبوك» [رواه البخارى ومسلم].

قال القرطبي: فهذا الحديث يدل على أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب. وذلك أن صعوبة الحمل، وصعوبة الوضع، وصعوبة الرضاع، والتربية تنفرد بها الأم دون الأب.

وروى عن مالك ؓ أن رجلاً قال له: إن أبى فى بلد السودان، وقد كتب إلى أن أقدم عليه، وأمى تمنعنى من ذلك، فقال له: أطع أباك ولا تعص أمك.

ومعنى هذا أن الأم لها الحق فى العناية والرعاية والاهتمام أكثر من الأب، وأن أمرها إذا اصطدم بأمر الأب فهى الأحق بالطاعة، والأولى أن يحاول الابن التوفيق بينهما، وهذا الذى يظهر من قول الإمام مالك والله أعلم<sup>(١)</sup>.

### ٤ - الأبوان المشركان لهما حق البر كالمسلمين:

أخرج البخارى عن أسماء بنت أبى بكر قالت: أتتني أمى راغبة فسألت النبى ﷺ أصلها؟

قال: نعم، فأنزل الله فيها: ﴿لَا يَنْهَكُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُواكُمْ فِي الدِّينِ﴾<sup>(٢)</sup>.  
وبناء على ذلك فبر الوالدين الكافرين أو الفاسقين واجب فى غير معصية، وذلك أن البر - كما ذكر القرآن - مقابل ما فعل الوالدان بالابن من معروف، وقدماء له من خير، وقامأ به من تربية، والكافران فى ذلك كالمسلمين. غير أنه لا يستغفر لهما ولا يدعو لهما بعد موتهما على الكفر.

### ٥ - بر الوالدين بعد وفاتهما:

وبر الوالدين ليس مقصوراً على برهما أثناء حياتهما، وإنما هو ممتد إلى ما بعد الوفاة،

(١) يتصرف من السلوك الاجتماعى فى الإسلام / حسن أيوب.

(٢) سورة الممتحنة الآية ٨.

فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد وفاتهما؟ قال: نعم، الصلاة عليهما<sup>(١)</sup> والاستغفار لهما، وإنفاذ<sup>(٢)</sup> عهدهما من بعدهما. وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقيهما» [رواه البخاري].

وعن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه» [رواه البخاري].

٦ - من البر استئذانهما للجهاد:

قال القرطبي: من الإحسان إليهما والبر بهما - إذا لم يتعين الجهاد - ألا يجاهد إلا بإذنهما، واستدل على ذلك بأحاديث منها:

- عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال: «جاء رجل إلى نبي الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال أحى والدك؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهده» [رواه البخاري].

- وعن أبي سعيد رضي الله عنه «أن رجلا من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله ﷺ فقال له: هل لك أحد باليمن؟ قال: أبواي. قال أذننا لك؟ قال: لا. قال فارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أذننا لك فجاهد وإلا فبرهما» [رواه أبو داود].

وهذا دليل على وجوب استئذان الأبوين للجهاد إذا لم يتعين الجهاد عليه، والجهاد يتعين في أحوال ثلاثة:

- أن يهاجم العدو بلده.

- أن يختاره الإمام المسلم للقتال.

- أن يكون الجيش الذي يدافع عن بلد إسلامي غير كاف، ويستطيع أن يساعد هذا الجيش.

٧ - حكم طاعتها في طلاق امرأته أو التزوج بمن لا يريداهما:

عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: كانت تحتى امرأة أحبها، وكان عمر يكرهها.

فقال لى: طلقها فأبيت، فأتى عمر رسول الله ﷺ فذكر ذلك له.

فقال لى رسول الله ﷺ: «طلقها» [رواه الترمذي].

اختلف العلماء فيمن أمره أبوه بطلاق امرأته هل يطلقها أم لا؟

منهم من قال: يطلقها للنص السابق، لأن عمر كان ينتظر بنور الله ويعمل لصالح الدين، وليس له هوى فيما يقول ويفعل إنما يقول ويفعل لله، وجمهور الفقهاء على أنه لا يطلقها.

(١) الصلاة عليهما: أى الدعاء لهما.

(٢) إنفاذ عهدهما: تنفيذ وصيتهما.

جاء كتاب الآداب الشرعية للمقدسى قوله: فإن أمره أبوه بطلاق امرأته لم يجب.. قال سندي: سألت رجلاً أبا عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - فقال له: إن أبي يأمرني أن أطلق امرأتي. قال: لا تطلقها، قال: أليس عمر أمر ابنه عبد الله أن يطلق امرأته؟ قال له: حتى يكون أبوك مثل عمر.

وكذلك اختلفوا فيما لو أمرته أمه أن يطلق.. وقد قال الشيخ تقي الدين - فيمن تأمره أمه بطلاق امرأته: لا يحل له أن يطلقها، بل عليه أن يبرها، وليس تطليق امرأته من برها، انتهى. والذى عليه أهل العلم أن زوجته إن كانت تؤذى أبويه أو أحدهما، فأمره أو أمره أحدهما بطلاقها وجب عليه طلاقها وإلا فلا. وكذلك إذا كانت تعصى الله بترك الصلاة أو الخروج سافرة، أو تحرض أبناءها على المعصية أو على عقوق أبيهم، وأشبه ذلك مما هو واقع في زماننا. وفي مسألة ما إذا أراد الوالدان أو أحدهما أن يلزما ابنتهما بالزواج ممن لا يريدانها، فقد قال الشيخ تقي الدين: إنه ليس لأحد الأبوين أن يلزم الولد من لا يريد، وأنه إذا امتنع لا يكون عاقاً<sup>(١)</sup>.

### قصة بليغة في حق الأبوة

قال القرطبي في تفسيره: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبي أخذ مالي، فقال النبي ﷺ للرجل: فائتنى بأبيك، فنزل جبريل ﷺ على النبي ﷺ فقال: إن الله عز وجل يقرئك السلام، ويقول لك: إذا جاءك الشيخ فأسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه. فلما جاء الشيخ قال له النبي ﷺ: «ما بال ابنك يشكوك؟ أتريد أن تأخذ ماله؟». فقال: سله يا رسول الله هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسي، فقال له رسول الله ﷺ: «إيه»<sup>(٢)</sup> دعنا من هذا. أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك؟. فقال الشيخ: والله يا رسول الله ما زال الله يزيدنا بك يقينا، لقد قلت في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي. قال: قل وأنا أسمع. قال: قلت:

غدوتك مولوداً وصفتك يافعا <sup>(٣)</sup>	تعل بما أجنى عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبيت	لسقمك إلا ساهراً أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى	طرقت به بونى فعينى تهمل <sup>(٤)</sup>

(١) انظر كتاب الملوك الاجتماعي في الإسلام/ الشيخ حسن أيوب.

(٢) إيه: بمعنى حسبك.

(٣) يافعا: شاهياً، تعل من العلة أي المرض، تنهل: تستق منى ثانية.

(٤) فعينى تهمل: تبكى لأجلك.

لتعلم أن الموت وقت مؤجل  
إليها مدى ما كنت فيه أو مل  
كأنك أنت المنعم المتفضل  
فعلت كما الجار المصائب يفعل  
على بمال دون ما لك تبخل

تخاف الردى نفسى عليك وإنها  
فلما بلغت السن والغاية التى  
جعلت جزائى غلظة وفضاظة  
فليتك إذا لم ترع حق أبوتى  
فأوليتنى حق الجوار ولم تكن

قال: فحينئذ أخذ النبي ﷺ بتلابيب ابنه وقال: «أنت ومالك لأبيك»<sup>(١)</sup>. [رواه الطبرانى].



(١) انظر التفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٤٥.

## الفصل العاشر

### تذكر الموت

١- قصر الأمل:

قال ابن الجوزي:

الواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله، فإنه لا يعلم متى يفجؤه أمر ربه، ولا يدري متى يستدعى؟، وإنى رأيت خلقاً كثيراً غرهم الشباب ونسوا فقدان الأقران، وألهام طول الأمل. وربما قال العالم لنفسه: أشغل بالعلم اليوم ثم أعمل به غداً، فيتساهل فى الذلل بحجة الراحة، ويؤخر الأهبة لتحقيق التوبة، ولا يتحاشى من غيبة أو سماعها، ومن كسب شبهة يأمل أن يمحوها الورع، وينسى أن الموت قد يبيغته. فالعاقل من أعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه، فإن بغته الموت رثى سعيداً، وإن نال الأمل ازداد خيراً<sup>(١)</sup>.  
وقال أيضاً: إذا علم الإنسان بأن الموت يقطعه عن العمل، عمل فى حياته ما يدوم له أجره بعد موته، فإن كان له شيء من الدنيا (أى من متاعها) وقف وقفاً، وغرس غرساً وأجرى نهراً.. أو أن يصنف كتاباً من العلم، فإن تصنيف العالم ولده المخلد، وأن يكون عاملاً بالخير عالماً فيه. فينقل من فعله ما يقتدى الغير به، فذلك الذى لم يميت<sup>(٢)</sup>.

٢- ذكر الموت والاستعداد له:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثرُوا من ذكر هادم اللذات». .  
قلنا يا رسول الله: وما هادم اللذات؟ قال: «الموت» [رواه الترمذى].  
وروى ابن ماجة عن ابن عمر أنه قال: كنت جالسا مع رسول الله ﷺ فجاء رجل من الأنصار فسلم على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أى المؤمن أفضل؟  
قال: «أحسنهم خلقاً» .  
قال: فأى المؤمنين أكيس؟  
قال: «أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم لما بعده استعداداً أولئك الأكياس» .  
وروى الترمذى عن شداد بن أوس أن النبي ﷺ قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى» .

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي.

(٢) المرجع السابق.

قال العلماء - رحمهم الله: قوله عليه السلام: «أكثرُوا من ذكر هادم اللذات الموت» كلام مختصر وجيز، قد جمع التذكرة، وأبلغ فى الموعظة، فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغص عليه لذاته الحاضرة، ومنعه من تمنيتها فى المستقبل، وزهده فيما كان منها يؤمل، ولكن النفوس الراكدة، والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعظ، وتزويق الألفاظ، وإلا ففى قوله عليه السلام: «أكثرُوا من ذكر هادم اللذات» مع قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾<sup>(١)</sup> ما يكفى السامع له ويشغل الناظر فيه<sup>(٢)</sup>.

### ٣ - العظات من ذكر الموت:

ينبغى أن تعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية، والتوجه فى كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالته ضيق الدار وسعة، ونعمة ومحنة، فإن كان فى حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه، فإنه لا يدوم. والموت أصعب منه. أو فى حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاعتزاز بها، والسكون إليها، لرحيله عنها.

وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم، ولا زمن معلوم، ولا مرض معلوم، وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك، وكان بعض الصالحين ينادى بليل على سور المدينة: الرحيل. الرحيل. فلما توفى فقد صوته أمير المدينة فسأل عنه. فقيل: إنه قد مات، فقال:

ما زال يلهج بالرحيل وذكره  
حتى أناخ ببابه الجمال  
فأصابه متيقظاً متشمراً  
ذا أهبة لم تلعه الآمال

وقال التيمي: شينان قطعاً عنى لذة الدنيا: ذكر الموت، وذكر الموقف بين يدي الله تعالى. وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يجمع العلماء فيتذكرون الموت والقيامة والآخرة، فيبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وقال الدقاق:

من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة. ومن نسى الموت عوقب بثلاث أشياء: تسويق التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل فى العبادة. فتفكر فى الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت من وعد ما صدقه، ومن حاكم ما أعدله، كفى بالموت متروخاً للقلوب، ومبكيًا للعيون، ومفرقاً للجماعات، وحادماً للذات، وقاطعاً للأمنيات.

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٥.

(٢) انظر التذكرة للقرطبي.

فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك، وانتقالك من موضعك، فإذا بك نقلت من سعة إلى ضيق، وخانك صاحب الرفيق، وهجرك الأخ والصديق، وأخذت من فراشك وغطائك، وغطوك من بعد لين لحافك بتراب ومدن.

فيا جامع المال، والمجاهد في البغيان ليس لك والله من مال إلا الأكفان، بل هي والله للذهاب والخراب، وجسمك للتراب والمآب، فأين الذي جمعته من المال؟ فهل أنتقذك من الأهوال؟ كلا بل تركته إلى من لا يحمذك، وقدمت بأوزارك على من لا يعذرك<sup>(١)</sup>.

٤- ما يذكر الموت ويزهد في الدنيا:

روى مسلم عن أبي هريرة قال: زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله وقال: «استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت».

وعن ابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها. فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة» وزيارة القبور للرجال متفق عليها عند العلماء، مختلف فيها للنساء، أما الشواوب - جمع شابة - فحرام عليها الخروج، وأما القواعد فمباح لهن ذلك، وجائز ذلك لجميعهن إذا انفردن بالخروج عن الرجال بلا خلاف. قال القرطبي:

- قال العلماء رحمة الله عليهم: ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور، وخاصة إن كانت قاسية فعلى أصحابها أن يعالجوها، وذلك بما يلي:

أحدها: الإقلاع عما عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكر، والتخويف، والترغيب، وأخبار الصالحين، فإن ذلك مما يلين القلوب وينفع فيها.

الثاني: ذكر الموت، فيكثر من ذكره هادم اللذات ومفرق الجماعات، ويميم البنين والبنات - كما تقدم ذكره - يروي أن امرأة شكت إلى عائشة - رضي الله عنها - قسوة قلبها فقالت لها: أكثرى من ذكر الموت يرق قلبك. ففعلت ذلك فرق قلبها، فجاءت تشكر عائشة - رضي الله عنها. قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصي ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهون المصائب فيها.

الثالث: مشاهدة المحتضرين، فإن في النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته، ونزعاته، ما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرود عن القلوب مسراتها، ويمنع الأجدان من النوم والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب.

(١) انظر التذكرة للقرطبي.

يروى أن الحسن البصرى دخل على مريض يعوده، فوجده فى سكرات الموت، فنظر إلى كربه، وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بلون غير اللون الذى ذهب به، فقالوا له: الطعام يرحمك الله فقال: يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم، فواته لقد رأيت مصرعاً لا أزال أعمل له حتى ألقاه<sup>(١)</sup>.



---

(١) المرجع السابق.

## الفصل الحادى عشر

### التواضع

١- فضل التواضع ابتغاء مرضاة الله:

حثت النصوص الإسلامية على التواضع ابتغاء مرضاة الله ورغبت فيه، وأبانت أن من تواضع لله كافأه الله على تواضعه بالرفعة: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». وهذا من سنن الله فى عباده، كما أن من استكبر وتعالى على خلق الله أذله الله.

ومن الملاحظ أن الناس يحبون المتواضع ويألفونه، ويكرهون المستكبر ويأنفون عنه ولا يألفونه، والسر فى ذلك أن المتواضع ينزل نفسه إلى مستوى جلسائه فيعيش معهم بوداعة وانطلاق، ويعيشون معه بمثل ذلك، فيتم بينه وبينهم الألف والوثام، وذلك يولد المحبة، بخلاف المستكبر، فإنه يرفع نفسه فوق مستوى جلسائه، فيعيش وحده فى جوه النفسى المتعظم، وحين يرى جلساؤه ومعاشروه ذلك منه يبتعدون عنه بنفوسهم فلا يألفونه، ويرونه يضع نفسه فوقهم فيكرهونه. فكلتا الثمرتين من النتائج الطبيعية لكلا العملين.

٢- التواضع خلق الرسول عليه السلام:

ولما كان التواضع من الأخلاق التى تملك القلوب بالمحبة أمر الله رسوله بأن يخفض جناحه للمؤمنين، مع أنه صلى الله عليه وسلم رفيع المكانة فى نفسه، عظيم المنزلة عند الله. فقال الله تعالى له: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

● فكان صلوات الله وسلامه عليه يخفض جناحه للمؤمنين، فلا يتعظم عليهم ولا يستكبر، ويجلس بينهم كواحد منهم، حتى يدخل عليه وهو فى أصحابه من لا يعرفه فيقول: أياكم محمد؟

وربما كانت توقفه الأمة وتأخذ بيده ليقضى حاجة لها، روى البخارى عن أنس قال: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبى ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

● وكان من تواضعه تحييه إلى الصغار بالسلام عليهم والمسح على رؤوسهم ووجوههم.

روى مسلم عن جابر بن سمرة قال: صليت مع رسول الله صلاة الأولى (أى الظهر) ثم خرج إلى أهله وخرجت معه، فاستقبله ولدان فجعل يمسح خدى أحدهم واحدا واحدا. قال: وأما أنا فمسح خدى. قال: فوجدت ليدى بردا، أو ريحا كأنما أخرجها من جوة عطار.

(١) سورة الحجر الآية ٨٨.

«من جوثة عطار: أى من السلة التى يضع فيها روائحه وعطره» .

● وقد ضرب الرسول المثل الأعلى فى التواضع، فقد بلغ من تواضعه صلى الله عليه وسلم أنه كان فى بيته فى مهنة أهله يخدم نفسه، ويخدمهم، فيخصف نعله ويرقع ثوبه، وكان يعود المريض، ويتبع الجنائز، وكان يضافح أصحابه وهم جلوس ويقول لمن أراد أن يقوم له: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا» .

● وحدث أنه كان صلوات الله عليه فى سفر. فأمر أصحابه بإصلاح شاة وإعدادها للأكل.

فقال واحد منهم: يا رسول الله علىّ ذبحها.

وقال آخر: يا رسول الله علىّ سلخها.

وقال ثالث: يا رسول الله علىّ طبخها.

فقال الرسول ﷺ: وعلىّ جمع الحطب.

فقالوا: يا رسول الله إنا نكفيك العمل.

فقال: إني علمت أنكم تكفوننى، لكنى أكره أن أتميز عليكم، والله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين خلقه<sup>(١)</sup>.

● وأخرج الحاكم أنه صلى الله عليه وسلم: أتى برجل فأرعد من هيبتة فقال له: «هون عليك فلست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد» .

### ٣- الدعوة إلى التواضع:

لما كان التواضع من خير الخلال وأحب الخصال إلى الله وإلى الناس، وهو موجب للرفعة وباعث على التآلف ومحقق للحب والود، فقد أمر الله نبيه، وبين له أن ذلك من أسباب جمع القلوب عليه، فقال:

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَّهُمْ لَوْلَا كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾<sup>(٢)</sup> .

ولما للتواضع من أثر اجتماعى كبير: فقد أخبر صلوات الله وسلامه عليه أن الله أوحى به إليه، وأنه سبب من أسباب القضاء على البغى ومحو الفخر فقال:

«إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد» .

[رواه مسلم]

كما بين أنه سبب من أسباب الشرف والرفعة فقال:

«ما نقصت مال من صدقة. وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد إلا رفعه الله» .

[رواه مسلم]

(١) انظر الإحياء (١٧/٢) .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

وكثيراً ما نهى الرسول الكريم عن الكبر، وبغضه إلى المسلمين، وأمر بالتواضع وحببه إليهم، وكثيراً ما ضرب لهم أعظم المثل والقُدوة بنفسه مثل قوله:  
لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله.  
التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله.  
لا ينظر الله إلى رجل يجزر إزاره بطراً<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - حكايات ونماذج رفيعة في التواضع

- كان النبي ﷺ قد جهز قبل وفاته جيشاً لمحاربة الروم بقيادة أسامة بن زيد، لكنه مات قبل أن يخرج الجيش.

فلما بويح أبو بكر بالخلافة أنفذ هذا الجيش وشيعه ماشياً وأسامة راكب. فقال له أسامة:  
لتركبن أو لأنزلن، فقال، والله لا نزلت ولا ركبت، وما على أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله.

- أخرج الدينوري عن الحسن قال: «خرج عمر بن الخطاب ﷺ في يوم حار واضعاً رداءه على رأسه، فمر به غلام على حمار فقال له: يا غلام احملني معك، فنزل الغلام عن الحمار وقال: اركب يا أمير المؤمنين، [أى أمامي] قال: لا، ولكن اركب أنت وأركب أنا خلفك، تريد أن تحملني على المكان الوطئ وتتركب أنت في الموضع الخشن؟  
فركب خلف الغلام، ودخل المدينة وهو خلفه والناس ينظرون إليه».

- وأخرج ابن سعد عن عبد الله الرومي قال: «كان عثمان ﷺ يلى وضوء الليل بنفسه، فقيل له: لو أمرت بعض العمال فكفوك؟ فقال: لا. إن الليل لهم يستريحون فيه».

- أخرج البخاري في الأدب عن صالح عن جدته قال: «رأيت علياً ﷺ اشترى تمرًا بدرهم فحمله في ملحفته، فقلت: أحمل عنك متاعك يا أمير المؤمنين؟ قال: لا. أبو العيال أحق أن يحمل»<sup>(٢)</sup>.



(١) انظر الإحياء (٢٨٠/٤).

(٢) انظر هذه النماذج وغيرها مخرجة في كتاب/ السلوك الاجتماعي في الإسلام/ الشيخ حسن أيوب.

## الفصل الثاني عشر

### التوبة

تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع العلماء على وجوب التوبة، وأمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾<sup>(١)</sup> ووعد بالقبول فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾<sup>(٢)</sup> وفتح باب الرجاء فقال: ﴿ قُلْ يَجَادِبُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾<sup>(٣)</sup>.

وروى في الصحيح عن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن رسول الله ﷺ قال:

«الله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل بأرض دوية مهلكة معه راحلته، فنام واستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال: أرجع إلى المكان الذي ضللتها فيه وأموت، فأتى مكانه فغلبته عينه فاستيقظ، فإذا راحلته عند رأسه فيها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه. فإله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» [رواه البخارى] وعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها» [رواه مسلم] وحكى أن نبهان التمار وكنيته أبو مقبل أخته امرأة حسناء تشتري تمرًا، فقال لها: هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه، فذهب بها إلى بيته وضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجِيئَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾<sup>(٤)</sup>.

١ - إطلاقات التوبة في القرآن الكريم:

وردت كلمة التوبة في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه:

- (١) سورة النور الآية ٣١.
- (٢) سورة الشورى الآية ٢٥.
- (٣) سورة الزمر الآية ٥٣.
- (٤) سورة آل عمران الآية ١٣٥.

- ( أ ) بمعنى التجاوز والعفو، وهذا مقيد بعلى كقوله تعالى: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾<sup>(١)</sup>.
- ( ب ) بمعنى الرجوع والإنابة، وهذا مقيد بإلى، كقوله تعالى: ﴿ وَتَوَّابًا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا  
أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾<sup>(٢)</sup>.
- ( ج ) بمعنى الندامة: وهذا غير مقيد كقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَبَتُّمْ فَهَوْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾<sup>(٣)</sup>.
- ٢ - معانى التوبة وأنواعها:

قال صاحب التعريفات: التوبة على ثلاثة معان:

الأول: الندم.

وثانيها: العزم على ترك العود إلى ما نهى الله عنه.

وثالثها: السعى فى أداء المظالم.

أما أنواعها:

ف قيل هى نوعان: توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة.

● فتوبة الإنابة: أن تخاف من الله من أجل قدرته عليك.

● وتوبة الاستجابة: أن تستحى من الله لقربه منك، قال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ  
الْوَرِيدِ ﴾<sup>(٤)</sup>.

وقيل بل هى ثلاثة:

● التوبة الصحيحة: وهى أنه إذا اقترف العبد ذنبا تاب عنه بصدق فى الحال.

● والتوبة الأصح: وهى التوبة النصوح (وسياتى ذكرها).

● والتوبة الفاسدة: وهى التوبة باللسان مع بقاء لذة المعصية فى الخاطر<sup>(٥)</sup>.

### ٣ - شروط قبول التوبة:

ذكر العلماء شروطاً لقبول التوبة، ونلخص منها فيما يلى ما تؤديه النصوص:

- ( أ ) إذا كانت التوبة من معصية لا تتعلق بحق إنسان فلقبولها شروط خمسة هى:
- الشرط الأول: أن يقلع المذنب عن المعصية.
- الشرط الثانى: أن يندم على فعلها.

(١) سورة البقرة الآية ٥٤.

(٢) سورة النور الآية ٣١.

(٣) سورة التوبة الآية ٣.

(٤) سورة ق الآية ١٦.

(٥) انظر التعريفات للجرجاني ولسان العرب لابن منظور.

الشرط الثالث: أن يعزم على ألا يعود إليها أبدا.

الشرط الرابع: أن تكون التوبة قبل أن يحضر الموت، فإذا حضر الموت، وبلغت الروح الحلقوم لم تقبل التوبة حينئذ.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة قبل أن تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها أقفل باب التوبة، وكذلك إذا خرج الدجال، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما. (ب) وإذا كانت التوبة من معصية تتعلق بحق إنسان فلقبولها شرط سادس يضاف إلى الشروط الخمسة السابقة، وهو: أن يؤدي لصاحب الحق حقه، أو نظير حقه، أو يحصل على مسامحته وعفوه من غير إكراه. فإذا تعذر عليه أن يسترضى أصحاب الحقوق. سأل الله أن يتولى عنه إرضاءهم. وحين يعلم الله صدق توبته وعجزه عن تأديته الحقوق لأهلها، فإن الله يتولى عنه يوم القيامة إرضاءهم ويغفر له.

وتصح التوبة الصادقة المستوفاة لشروطها من كل الذنوب مهما كان شأنها، فمن صدق في توبته غفر الله له، ولو كانت ذنوبه من أكبر الكبائر، كالقتل، والسرقه، والزنا وغير ذلك من الذنوب.

#### ٤ - التوبة النصوح:

قال التهانوني: التوبة النصوح وهي من أعمال القلب تعنى تنزيه القلب عن الذنوب، وعلامتها أن يكره العبد المعصية ويستقبحها فلا تخطر له على بال، ولا ترد في خاطره أصلا<sup>(١)</sup>.  
والتوبة النصوح هي التي أمر الله بها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾<sup>(٢)</sup>.  
والتوبة تنتظم الألم والندم على ما مضى، والإقلاع عن الذنب في الحاضر، والعزم الأكيد على استئناف حياة صالحة فيما يستقبل من الزمان، فإن كان ثمة حقوق للعباد وجب ردها إلى أصحابها، أو استحللهم منها إن أمكن. وهذه التوبة هي التي يقبلها الله سبحانه ويفرح بها، يقول الله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.  
وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه تبارك وتعالى: «أذنبت عبدي ذنبا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: أذنبت عبدي ذنبا، فعمل أن له ربا يغفر الذنوب، ويأخذ بالذنوب. ثم عاد بالذنوب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنبت عبدي ذنبا، فعمل أن له ربا يغفر الذنوب، ويأخذ بالذنوب، ثم عاد فأذنبت، فقال أي رب

(١) التعريفات للجرجاني.

(٢) سورة التحريم الآية ٨.

(٣) سورة الشورى الآية ٢٥.

اغفر لي ذنبا، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي وتاب فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنوب وقد غفرت لعبدي. فليفعل ما شاء» [رواه البخارى ومسلم].

#### ٥ - أقسام عصاة المؤمنين بالنسبة إلى التوبة:

يقسم القرآن العصاة من المؤمنين إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عصاة مؤمنون يفعلون السوء بجهالة، ثم يتوبون من قريب ويصلحون نفوسهم وسلوكهم، وهؤلاء قد وعدهم الله وعدا قاطعا بأن يتوب عليهم، وقد دل على ذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١).

القسم الثانى: عصاة مؤمنون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، واعترفوا بذنوبهم، ولكن دون أن تكون منهم توبة واستقامة.

وهؤلاء لم يعطهم الله وعدا قاطعا بأن يتوب عليهم، ولكن أعطاهم رجاء بذلك، وقد دل على ذلك الرجاء قوله تعالى: ﴿ وَأَخْرُونَ أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢).

القسم الثالث: عصاة مؤمنون أسرفوا على أنفسهم، فلم يتوبوا بذنوبهم.

ورجاء هؤلاء بالتوبة والمغفرة ضعيف، ولكنه غير منقطع نهائياً، وتوقع العقوبة هو الأرجح بالنسبة إليهم، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَخْرُونَ مُرَجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣).



(١) سورة النساء الآية ١٧.

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٢.

(٣) سورة التوبة الآية ١٠٦.

## الفصل الثالث عشر

### التوكل على الله

#### ١- مواطن التوكل:

إن التوكل على الله - عز وجل - مطلوب في كل شئون الحياة، بيد أن هناك مواطن كثيرة ورد فيها الحض على التوكل. قال الفيروز ابادي:

- إذا طلبتم النصر والفرج فتوكلوا عليه: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(١)</sup>.  
- إذا أعرضت عن أعدائك فليكن رفيقك التوكل: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾<sup>(٢)</sup>.

- إذا أعرض عنك الخلق فاعتمد على التوكل: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾<sup>(٣)</sup>.

- إذا تلى القرآن عليك أو تلوته فاستند على التوكل: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

- إذا طلبت الصلح والإصلاح بين قوم لا تتوسل إلى ذلك إلا بالتوكل: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾<sup>(٥)</sup>.

- إذا وصلت قوافل القضاء فاستقبلها بالتوكل: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٦)</sup>.

- إذا نصبت الأعداء حبال المكر فادخل أنت في أرض التوكل: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ثَوَجِ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّانَتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾<sup>(٧)</sup>.

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٠.

(٢) سورة النساء الآية ٨١.

(٣) سورة التوبة الآية ١٢٩.

(٤) سورة الأنفال الآية ٢.

(٥) سورة الأنفال الآية ٦١.

(٦) سورة التوبة الآية ٥١.

(٧) سورة يونس الآية ٧١.

- إذا عرفت أن مرجع الكل إلى الله فوطن نفسك على فرش التوكل: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (١).

- إذا علمت أن الله هو الواحد على الحقيقة، فلا يكن اتكالك إلا عليه: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ (٢).

- إذا كانت الهداية من الله فاستقبلها بالشكر والتوكل: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَ عَلَى مَا أَدَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٣).

- إذا خشيت بأس أعداء الله والشيطان فلا تلجأ إلا إلى باب الله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٤).

- إذا أردت أن يكون الله وكيلك في كل حال فتمسك بالتوكل في كل حال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٥).

- إذا أردت أن يكون الفردوس الأعلى منزلك فانزل في مقام التوكل: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٦).

- إن شئت أن تنال محبة التوكل فانزل أولاً في مقام التوكل: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٧).

- إذا أردت أن يكون لك وتكون لله خالصاً فعليك بالتوكل: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٨).

## ٢ - فضيلة التوكل:

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ (٩) وقال تعالى: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١٠)

(١) سورة هود الآية ١٢٣.

(٢) سورة الرعد الآية ٣٠.

(٣) سورة إبراهيم الآية ١٢.

(٤) سورة النحل الآية ٩٩.

(٥) سورة النساء الآية ٨١.

(٦) سورة النحل الآية ٤٢.

(٧) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

(٨) سورة الطلاق الآية ٣.

(٩) سورة الفرقان الآية ٥٨.

(١٠) سورة الأنفال الآية ٢.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير».

[رواه مسلم]

قيل معناه متوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة، وعن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا» [رواه الترمذي].

أى تذهب في أول النهار ضامرة البطون فارغتها، وتروح في آخر النهار ممتلئة البطون من الشبع.

هذا الحديث يؤكد العقيدة الإيمانية في قضية الرزق، ويوجه المؤمن إلى صدق التوكل على الله حتى تكون مساعيه في اكتساب الرزق متسمة بخلق الثقة بالمقادير الربانية، وبالوعد الربانى الذى ضمن الله فيه لعباده أرزاقهم، وكلفهم السعى لتحصيل ما قسم لهم، فلا تموت نفس حتى تستوفى ما قدر لها من رزق.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود من دعانى أحبته، ومن استغاثنى أغثته، ومن استنصرنى نصرته، ومن توكل على كفيته، فأنا كافى المتوكلين، وناصر المستنصرين، وغياث المغيثن، ومجيب الداعين.

قال الشاعر:

وما ثم إلا الله فى كل حالة  
فكم حالة تأتى ويكرهها الفتى  
فلا تتكل يوماً على غير لطفه  
وخيرته فيها على رغم أنفه

٣ - ضرورة التوكل:

والإنسان وهو فى صراعه مع الحياة تنتابه المخاوف، وتعتريه الصعاب، وتنزل به الآلام النفسية، فلا يجد للحياة طعماً، ولا يستطيع مع هذا القلق أن يقوم بدوره الرئيسى فى إسعاد نفسه ونفع غيره، فتتعطل قواه المادية والأدبية، ويصبح شيئاً تافهاً لا قيمة له ولا غناء فيه، والحياة لا تطيب للإنسان، ولا يسعد بها، ولا يستطيع أن يقوم بدوره الكامل فيها إلا إذا استمتع بسكينة النفس، وطمأنينة القلب، وراحة البال، وعافية البدن.

وسبيل ذلك أن يثق بالله ويحسن الظن به، ويتوكل عليه، ويرد أمره كله إليه، ففى الحديث القدسى «أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى» [رواه البخارى].

(١) سورة الطلاق الآية ٣.

ومن ثم كان التوكل على الله ضرورة حياتية، لا يستغنى عنه العالم، ولا العامل، ولا الرجل، ولا المرأة، ولا الحاكم، ولا المحكوم، ولا الصغير، ولا الكبير، لحاجة هؤلاء جميعاً إلى يد قوية حانية، تعينهم إذا أقدموا من جانب، وتمسح آلامهم إذا أخفقوا من جانب آخر<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - الدعوة إلى التوكل:

إن الناظر في الإسلام يرى دعوته صريحة في الاتصاف بهذه الصفة والتحلى بها. فانه سبحانه يأمر بالتوكل عليه فيقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾<sup>(٢)</sup>.  
 والتوكل ثمرة من ثمرات الإيمان: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٣)</sup> والمتوكلون على الله يكفيهم الله كل ما أهمهم من أمر الدنيا والآخرة: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾<sup>(٤)</sup> أى كافيته.  
 والتوكل منهج الرسل جميعاً: إليه يلجئون، وبه يلوذون فالقرآن يحكى أنهم كانوا دائماً يقولون: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

والمسلمون بعد غزوة أحد حين هددوا بتجمع الأعداء، وقيل لهم: إن المشركين قد اجتمعوا للقضاء عليكم، لم يبالوا بذلك معتمدين على الله ومفوضين الأمر له فصرف الله عنهم العدو، وسجل لهم هذا الموقف الرائع فقال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾<sup>(٦)</sup> فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَضَلَّ لَمَّ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(٧)</sup>.  
 ويقول الرسول ﷺ:

«إن حسن الظن بالله من عبادة الله» [رواه أبو داود والحاكم].

وإبراهيم عليه السلام كان آخر قوله حين ألقى في النار:

حسبى الله ونعم الوكيل فأنجاه الله من النار وجعلها برداً وسلاماً عليه<sup>(٨)</sup>.

وقال جابر: «كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ. فجاء رجل من المشركين، وسيف رسول الله معلق بالشجرة، فاخترطه (أى سله).

(١) انظر كتاب إسلامنا/ الشيخ سيد سابق.

(٢) سورة الفرقان الآية ٨٥.

(٣) سورة إبراهيم الآية ١١.

(٤) سورة الطلاق الآية ٣.

(٥) سورة إبراهيم الآية ١٢.

(٦) سورة آل عمران الآية ١٧٣ - ١٧٤.

(٧) انظر كتاب إسلامنا/ الشيخ سيد سابق ص ٤٠.

فقال: تخافني. فقال: لا.

قال: فمن منعك مني؟

قال: الله فسقط السيف من يده فأخذه الرسول ﷺ.

فقال: «من يمنعك مني؟»

فقال: كن خير آخذ.

فقال: «تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله؟» .

قال: لا، ولكن أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك.

فخلى سبيله، فأتى أصحابه فقال: جئتم من عند خير الناس. [رواه البخارى ومسلم].

## ٥- التوكل والأسباب:

الإنسان مسوق إلى الأخذ بالأسباب بمقتضى فطرته وبمقتضى تكليف الله له، وإهمال هذه الأسباب مناف للفطرة، ومخالف لأمر الله.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا حُدُودًا حَذَرَكُم مِّنْ أَنْ يَفِرُوا جَمِيعًا﴾<sup>(١)</sup>.

﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿وَتَكَرَّوْا فِيهَا حَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى مخاطباً لوطاً عليه السلام لينجو بأهله: ﴿فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾<sup>(٤)</sup>.

وقال موسى عليه السلام فى مثل هذا الموقف: ﴿فَاسْرِبْ بِعِيَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

وفى العلاج والتداوى يأمر الدين بالأخذ بأسبابهما ويحض عليهما.

فقالوا: يا رسول الله: أنتداوى؟

فقال: «تداووا. فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد هو الهرم» .

[رواه ابن ماجة]

وكان الرسول ﷺ سيد المتوكلين، ومع ذلك فقد كان يأخذ لكل أمر عده، ويستعد لملاقاة أعدائه الاستعداد الكامل، ويتخذ جميع أسباب النصر، وكان يعمل ويسعى للكسب، ويأمر غيره بالسعى والكسب، وما كان يترك السبب الذى جعله الله موصلاً للغاية، إذ إن ترك السبب مجافاة النظام الذى وضعه الله للحياة، وما كانت مجافاة نظام الحياة موصلة إلى شيء<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة النساء الآية ٧١.

(٢) سورة الأنفال الآية ٦٠.

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٧.

(٤) سورة هود الآية ٨١.

(٥) سورة الدخان الآية ٢٣.

(٦) يتصرف من كتاب إسلامنا/ الشيخ سيد سابق.

وقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وأراد أن يترك ناقته على باب المسجد دون أن يعقلها فقال: يا رسول الله أعقلها وأتوكل؟ أو أطلقها وأتوكل؟

فقال النبي ﷺ «اعقلها وتوكل» [رواه الترمذى].

فالتوكل على الله لا يتحقق إلا باتخاذ الأسباب، ومتابعة سنن الله وقوانينه أولاً، ثم الاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه وترك النتائج له ثانياً.

٦ - الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل:

قال ابن القيم الجوزية: التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم معه التوكل.

ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها فالأسباب محل حكمة الله وأمره ونهيه، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية<sup>(١)</sup>.

ولقد رأى عمر ﷺ قوماً تواهرموا أن التوكل هو ترك مباشرة الأسباب فأعرضوا عن العمل، وركنوا إلى العجز والكسل، فقال لهم: ما أنتم؟

فقالوا: متوكلون. قال: كذبتم، ما أنتم متوكلون.

إنما التوكل: رجل ألقى حبة في الأرض، ثم توكل على الله. [رواه الحاكم].

ومثل من ترك العمل راجياً أن يحصل على ما يريد، كمن يريد أن يطير في الجو بلا جناح، أو يريد الولد بلا زواج، أو يريد تحريك الآلات بلا وقود وإنبات النبات دون تعهد.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليابس

٧ - بين التوكل والاتكال:

إن الأخذ بالأسباب مع تفويض أمر النجاح لله تعالى والثقة بأنه عز وجل لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وهو من التوكل المأمور به، أما القعود عن الأسباب وعدم السعى فليس من التوكل في شيء وإنما هو اتكال أو تواكل حذرنا منه رسول الله ﷺ ونهى عن الأسباب المؤدية إليه، مصداق ذلك ما جاء في حديث معاذ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يا معاذ، أتدرى ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟» .

قال (معاذ): قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله عز وجل ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً» .

(١) مدارج السالكين (١٢٥/٢) .

قال: قلت: أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشروهم فيتكلوا» [رواه مسلم].  
وهنا وضع الرسول ﷺ قاعدة جلييلة هي: أن كل ما يؤدي إلى ترك العمل أو يكون مظنة  
للإتكال أو التواكل فليس من التوكل في شيء.

وقد جاء في الحوار الذي دار بين المصطفى ﷺ وعمر بين الخطاب ﷺ ما يؤكد هذه الحقيقة  
كما جاء في رواية مسلم:

قال عمر: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أبعثت أبا هريرة بنعليك، من لقي يشهد أن لا إله  
إلا الله مستيقنا بها قلبه، بشره بالجنة؟  
قال: «نعم».

قال (عمر): «فلا تفعل. فإنني أخشى أن يتكل الناس عليها، فخلهم يعملون».

قال رسول الله ﷺ: «فخلهم يعملون».

يفهم من هذا الحديث والذي قبله أن الإتكال يعني ترك العمل وعدم الأخذ بالأسباب، وأن  
ذلك ليس من التوكل في شيء.

### قصة حاتم الأصم في التوكل

حكى أن حاتم الأصم كان رجلاً كثير العيال وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبة  
واحدة، وكان مشهوراً بالتوكل فجلس ليلة مع أصحابه يتحدث معهم فتعرضوا لذكر الحج،  
فدخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم  
أن يذهب إلى البيت الحرام في هذا العام حاجاً، ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم؟  
فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئاً من حطام الدنيا ونحن على  
ما ترى من الفقر والحاجة، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟  
وكانت له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهتمكم ذلك، دعوه يذهب حيث  
شاء فإنه متناول للرزق وليس برزاق.

فقالوا: صدقت. انطلق يا أبانا حيث أحببت، فقام في الحال وأحرم بالحج وأصبح مسافراً،  
ولما علم الجيران بعد ذلك أخذوا يدخلون على أهل بيته ويؤيخونهم ويؤنبونهم كيف أذنوا له  
بالحج، وجعل أولاده يلومون تلك الفتاة الصغيرة ويقولون لها: لو سكت ما تكلمنا، فرفعت  
الصغيرة طرفها إلى السماء وقالت:

إلهي وسيدى ومولاي عودت القوم بفضلك وأنت لا تضيعهم فلا تخيبهم ولا تخجلني معهم،  
فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلاد يسطاد، فانتقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل  
له عطش شديد، فساقه القدر إلى بيت الرجل الصالح حاتم الأصم ففرع الباب فقالوا من أنت؟

قال: الأمير ببابكم يريد أن يشرب ماء من عنديكم.  
فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدى سبحانك البارحة بتنا جياعا،  
واليوم يقف الأمير على بابنا ليشرّب ماء من عندنا، ثم إنها أخذت كوزا جديدا وملأته ماء،  
فأخذ الأمير الكوز وشرب منه، فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: أهذه الدار لأمير؟  
فقالوا: لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأعم.  
فقال الأمير: لقد سمعت به، وقال وزيره المرافق له: يا سيدى لقد سمعت أنه البارحة  
أحرم بالحج وسافر ولم يترك لعياله شيئا، وعلمت أنهم بالأمس باتوا جياعا.  
فقال الأمير: ونحن أيضا قد ثقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم،  
ثم حل الأمير منطقتة<sup>(١)</sup> من وسطه مملوءة نقودا ورمى بها في الدار، ثم قال لأصحابه: من  
أحببني فليلق منطقتته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم وهي مملوءة نقودا.  
ثم انصرفوا.  
فلما رأت الفتاة الصغيرة ذلك بكت بكاء شديدا، فقالوا لها: ما هذا البكاء؟ إنما يجب أن  
تفرحي، فإن الله قد وسع علينا.  
فقالت: يا أم. والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعا، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة،  
فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين اللهم انظر إلى  
أبينا، ودبره بأحسن التدبير. هذا ما كان من أمرهم.  
وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم فإنه لما خرج محرماً ولحق بالقوم توجع أمير الركب وأصيب  
بمرض، فطلبوا له طبيبا فلم يجدوا، فقالوا: هل من عبد صالح؟ فدل على حاتم، فلما دخل  
عليه وكلمه دعا له فعوفى الأمير في الحال فأمر له الأمير بهدايا عظيمة من دابة للركوب  
ومأكل ومشرب وملابس وغيرها فنام تلك الليلة مفكرا في أمر عياله فقيل له في مقامه:  
يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر  
الثناء على الله تعالى، فلما قضى حجه ورجع استقبله أولاده فعانق انصيبة الصغيرة وبكى ثم  
قال: صغار قوم كبار قوم آخرين. إن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به.  
فعليكم بمعرفته والتوكل عليه فإنه من توكل على الله فهو حسبه.



(١) منطقتة: المنطقة حزام يشد على الوسط وقد يوضع فيه نقود.

## الفصل الرابع عشر

### حق الجار

أمور كثيرة في حياتنا العصرية شوهدت المدنية النظرة إليها، وأطفأت شعلة العواطف التي كانت من قبل متأججة نحوها. ومن هذه الأمور «حقوق الجار على جاره» ولقد اهتم القرآن والسنة بحقوق الجار اهتماماً عظيماً، فالقرآن وضع حقوق الجار مع حق الله وحق الوالدين والأرحام، والسنة أظهرت أن جبريل مازال يوصي النبي ﷺ بحقوق الجار حتى ظن النبي ﷺ أن الله سيجعل الجار وارثاً من شدة التأكيد على حقوقه.

كما بينت السنة أن الذي يقصر في حق جاره أو يؤذيه يعتبر مرتكباً كبيرة من الكبائر، وأن القيام بحق الجار واجب من الواجبات الشرعية الهامة.

وفى مراعاة وصايا الإسلام لحقوق الجار تنعقد المودات، وتتوثق الروابط الاجتماعية بين المسلمين، وتتأكد ظاهرة من ظواهر التآلف والتراحم بين المؤمنين، ولذلك أمر الله تعالى بالإحسان للجار ذي القربى وللجار الجنب، كما أمر بالإحسان للوالدين ولذو القربى واليتامى والمساكين والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت الأيمان من أرقاء.

#### ١- مراتب الجيران وحد الجيرة:

قال العلماء: الجيران ثلاثة:

– جار له حق واحد – و جار له حقان. – و جار له ثلاثة حقوق.

● فالجار الذي له ثلاثة حقوق: هو الجار المسلم ذو الرحم، فله حق الجوار، وحق

الإسلام، وحق الرحم.

● والجار الذي له حقان: هو الجار المسلم، له حق الجوار وحق الإسلام.

● وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك<sup>(١)</sup>.

أما حد الجوار فاختلف فيه:

فجاء عن علي ﷺ «من سمع النداء فهو جار»، وقيل من صلى معك صلاة الصبح في المسجد فهو جار.

و عن عائشة – رضي الله عنها – «حق الجوار أربعون داراً من كل جانب» .

(١) السلوك الاجتماعي في الإسلام/ حسن أيوب.

وكلما كان الجار أقرب بابا كان أولى بالإحسان والإكرام، وروى البخارى عن عائشة قالت:  
قلت يا رسول الله إن لى جارين فألى أيهما أهدى؟  
قال: «إلى أقربهما منك بابا»<sup>(١)</sup>.

## ٢ - حق الجار تفصيلا:

عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - عن النبي ﷺ قال:  
«من أغلق بابَه دون جاره مخافة على أهله وماله فليس ذلك بمؤمن من لم يأمن جاره  
بوائقه.

- أتدرى ما حق الجوار؟

- إذا استعانك أعتته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته،  
وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيتته وإذا مات اتبعت جنازته، ولا تستطل  
عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذنه بقَتَّار<sup>(٢)</sup> ريح قدرك إلا أن تغرف له  
منها، وإذا اشتريت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ  
بها ولده»<sup>(٣)</sup>.

- وقال الغزالي: وجملة حق الجار:

أن يبدأه بالسلام ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر السؤال عن حاله - لأن ذلك قد يخرجه -  
ويعوده فى المرض، ويعزيه فى المصيبة، ويقوم معه فى العزاء، ويهنئه فى الفرح، ويظهر  
الشركة فى السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه  
فى وضع الجذع على جداره، ولا يصب الماء أمام داره، ولا يضييق طريقه إلى داره، ويستتر  
ما ينكشف له من عيوبه وأخطائه، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه  
كلاما، ويغض بصره عن حريمه، ولا يديم النظر إلى خصوصياته، ويتلطف مع أولاده فى  
الكلام، ويرشدهم إلى ما يجهلونه من أمور الدين<sup>(٤)</sup>.

## ٣ - جزاء من يؤذى جاره:

عن أبى هريرة ؓ أن الرسول ﷺ قال:

«والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل من يا رسول الله؟

(١) المصدر السابق بتصرف.

(٢) القَتَّار: دخان ذو رائحة خاصة ينبعث من الطبخ أو الشواء.

(٣) رواه الخرائطى.

(٤) إحياء علوم الدين (٢/٢١٣).

قال: «الذى لا يأمن جاره بوائقه» [رواه البخارى ومسلم] وزاد أحمد. قالوا:  
يا رسول الله وما بوائقه؟ قال شره.

— عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«المؤمن من أمنه الناس، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر  
السوء، والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة عبد لا يأمن جاره بوائقه» [رواه أحمد].

— وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جاره، فقال له: «اذهب  
فاصبر، فأتاه مرتين أو ثلاثاً، فقال له: اذهب فاطرح متاعك فى الطريق ففعل، فجعل الناس  
يمرون ويسألونه، فيخبرهم خبر جاره فجعلوا يلعنونه (فعل الله به وفعل) وبعضهم يدعو  
عليه، فجاء إليه جاره فقال: ارجع فإنك لن ترى منى شيئاً تكره» [رواه أبو داود].

وبذلك ندرك خطر إيذاء الجار وعظم شؤمه وسوء مآله، ولا ينجو من ذلك إلا القليل، فإن  
الغيبة والنميمة والسب واللعن والشتم أشد ماتكون بين الجيران سواء الجيران فى المسكن أم  
الجيران فى العمل، أم الجيران فى الدراسة، فكل إنسان يجاورك مدة طويلة كل يوم يعتبر  
جاراً لك، له عليك حقوق وواجبات ولك عليه مثل ذلك.

وإليك هذا الحديث الذى يبين أن إيذاء الجار يضاعف العذاب لأنه إيذاء وخيانة، وجحود،  
وتنكر لما يفعله الجار من أجل جاره، حيث إن جارك أول من يسمع صريخك، ويرى النار فى  
بيتك، ويشعر بما أنت فيه من ألم وعذاب، فيهرع إليك مبادراً إلى مساعدتك فى ظلمة الليل،  
وبرد الشتاء وحر الصيف.. وهو الذى تطلب معونته فتجده بجوارك، وتطلب حاجته فيلبى  
مطالبك، وتترك زوجتك فى جواره وأنت آمن، وتدع مالك ومتاعك فى دارك ثم تغيب اعتماداً  
على أمانته، لذا كانت خيانتته تساوى خيانة غير الجار عشر مرات.

وإليك نص الحديث:

عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه:

«ما تقولون فى الزنا؟»

قالوا: حرام حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن  
يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره.

قال: ما تقولون فى السرقة؟

قالوا حرمها الله ورسوله، فهى حرام، قال: لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه  
من أن يسرق من جاره»<sup>(١)</sup> [رواه أحمد].

(١) بتصرف من السلوك الاجتماعى فى الإسلام/ حسن أيوب.

ومع هذه الوصايا الإسلامية نلاحظ كثيرا من الناس يؤذون جيرانهم، ولا يؤدون لهم حقوقهم، فكم من مزعجات صوتية تكاد تبعث الموتى من قبورهم يطلقها بعض الجيران غير مراعيين حقوق جيرانهم عليهم، وربما يكون ذلك فى وقت الراحة والنوم، كالقيلولة بعد الغداء، ومن الليل حتى الصباح وكم من قامات يرميها بعض الجيران على أبواب جيرانهم، وكم يستعير بعض الناس المتاع من جيرانهم ثم لا يردونه، وكم ينظر بعض الجيران إلى محارم جيرانهم بفضول قبيح، ونظرات مريبة، وكم من رجل فاضل هجر داره ليفارق جاره السوء، ويكف عن نفسه وأهله بوائقه.

إن جار السوء من المصائب الكبرى فى الحياة الدنيا، وقد يصل السوء ببعض الناس أن يتوسط لديه العقلاء لكف أذاه عن جيرانه، فلا يستجيب لهم، ويجدون أنفسهم لدى معالجته ونصحه كمن يحلب قرن الشاه أو يخاطب الأموات<sup>(١)</sup>.



---

(١) انظر الأخلاق الإسلامية وأسماها/ عبد الرحمن حسن حنيفة.

## الفصل الخامس عشر

### الحكمة ومكارم الأخلاق

فى القرآن الكريم ما يدل على أن الأخلاق الفاضلة والآداب الإسلامية هى من أهم مظاهر الحكمة، فإن القرآن قد أطلق لفظ الحكمة على هذه الأخلاق والآداب فى عدة مواضع.

● فقد ذكر فى سورة الإسراء التعاليم الخلقية الأساسية فى موضع واحد، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَإِمَّا يَلِغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ إلى قوله: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾<sup>(١)</sup>. وهى خمس عشرة آية، فيها النهى عن الشرك، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، وخفض الجناح لهما وإيتاء ذى القربى، والمسكين، وابن السبيل والنهى عن التبذير، والأمر بالتلطف لهم بالقول، والنهى عن الإفراط والتفريط، والنهى عن قتل الأولاد، وعن الزنا، وعن قتل النفس إلا بحقها، وعن الإسراف فى القصاص، والنهى عن أكل مال اليتيم إلا بالحق، والأمر بالإيفاء بالعهد، وإيفاء الكيل والميزان، والنهى عن التبختر والمرح الزائد، وبعد ما انتهى من ذكر هذه التعاليم الخلقية التى تلتقى عليها الأديان والأمم، والفطر السليمة المستقيمة، والعقول السليمة ختمها بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾<sup>(٢)</sup>.

● وكذلك شأن القرآن فى سورة لقمان، إلا إنها كانت نهاية فى سورة الإسراء، وكانت بداية فى سورة لقمان، فقال قبل أن يذكر تعاليم لقمان الخلقية، من نهى عن الشرك، ومعرفة الفضل للوالدين، وطاعتهما فى المعروف، واتباع سبيل من أناب، ومراقبة الله فى كل صغير وكبير، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والصبر على المصائب، وعدم احتقار الناس، والخيلاء والكبرياء، والأمر بالاعتقاد فى كل شىء، والقصد فى المشى، والغض من الصوت.

اقرأ قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ لَتَقَنَّ لِأَبْنَيْهِ، وَهُوَ يُعْطِيهِمْ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup> إلى قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْصِضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ - ٣٨.

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٩.

(٣) سورة لقمان الآية ١٣.

(٤) سورة لقمان الآية ١٩.

افتتح كل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْوَيْحَ إِذْ نَبَّأَهُ بِآيَاتِنَا أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (١).

فدل على أن كل ما نطق به لقمان، وصد عنه من التعاليم الخلقية والوصايا الحكيمة، إنما نبعث عن هذه الحكمة التي أكرم الله بها لقمان، وخصه بها بين الأقران، ويرجع الفضل فيها إلى هذه الموهبة الربانية، والأخلاق الفاضلة التي فطر عليها وتخلق بها ووفق لها، لذلك قال في صلب هذه الوصية بعد ما ذكر إبتاء هذه الحكمة: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٢).

● وكذلك كلمة (الحكمة) في سياق الأخلاق الفاضلة والصفات الكريمة الطيبة، ومن إنفاق الأموال في سبيل الله، ثم عدم اتباعه بالمن والأذى، والحث على القول بالمعروف والمغفرة، والتحرز من الرياء، والكفر بالله، والإشفاق من بطلان الصدقات وحبط الحسنات، والحرص على ابتغاء رضوان الله، وإصلاح النفس واستقامتها، والإنفاق من طيبات الأموال، وعدم تيمم الخبيث والنهي عن الخوف الشديد من الفقر، والاسترسال إلى الشيطان.

- اقرأ قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِائَةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣).

إلى قوله تعالى:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ختم كل ذلك بقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٤).

- فدل كل ذلك على أن الحكمة في اصطلاح القرآن وتعبيره لها صلة عميقة ووثيقة بالأخلاق، فإذا لم تكن أخلاق لم تكن حكمة، وإذا لم تكن حكمة لم تكن أخلاق، وإذا تقرر ذلك، فتعليم الأخلاق الفاضلة، وتهذيب النفوس وتزكية الأرواح لا يتم إلا بتصحيح العقائد والتطهر من دنس الشرك والجاهلية، والتحلى بالعلم الصحيح - يحتل مكانا كبيرا في مهمة النبوة المقدسة، ويشكل مقصدا كبيرا من مقاصد البعثة الرئيسية، وقد دخل ذلك في تعليم الحكمة وفي التزكية (٥).

(١) سورة لقمان الآية ١٢.

(٢) سورة لقمان الآية ١٢.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٦١.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦١ - ٢٦٢.

(٥) لأبي الحسن الندوي في تقديمه لكتاب تهذيب الأخلاق/ عبد الحى الحسيني.

## قطوف من الحكمة

### ● فى مكارم الأخلاق:

– من تمام المروءة أن تنسى الحق لك، وتذكر الحق عليك، وتستكبر الإساءة منك، وتستصغرها من غيرك.

– لا تسيء إلى من أحسن إليك، ولا تعن على من أنعم عليك.

– من أسرع فى الجواب أخطأ فى الصواب، من ركب العجل أدركه الزلل، ومن ضعفت آراؤه قويت أعداؤه. من قلت فضائله ضعفت وسائله. من فعل ما شاء لقي ما ساء.

– من ساءت أخلاقه طاب فراقه ومن حسنت خصاله طاب وصاله.

– من ضاق خلقه مله أهله، ومن حلم ساء، ومن تفهم ازداد.

– من كظم غيظه فقد حلم ومن حلم فقد صبر ومن صبر فقد ظفر.

– كل امرئ يعرف بقوله ويوصف بفعله فقل سديدا وافعل حميدا.

– من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه، ومن غاظك بقبيح الشتم منه فغظه بحسن الحلم عنه.

– من يبخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه، إذا اصطنعت المعروف فاستره وإذا

اصطنع إليك فانشره.

– أربعة تؤدى إلى أربعة: الصمت إلى السلامة، والبر إلى الكرامة، والجود إلى السيادة،

والشكر إلى الزيادة.

### ● من جوامع الحكم:

– قيل: المنفعة توجب المحبة، والمضرة توجب البغضة، والعدل يوجب اجتماع القلوب،

والجور يوجب الفرقة، وحسن الخلق يوجب المودة، وسوء الخلق يوجب المبادعة، والكبر

يوجب المقت، والتواضع يوجب الرفعة، والجود يوجب المدح، والبخل يوجب الذم، والحزم

يوجب السرور، والحذر يوجب السلامة، وبحسن المعاشرة تدوم المحبة. وبسعة خلق المرء

يطيب عيشه، وبكثرة الصمت تكون الهيبة.

– حق يضر خير من باطل يبسر، وكم من مرغوب فيه يسوء ولا يبسر، ومرهوب منه ينفع

ولا يضر.

– إذا جهلت فاسأل، وإذا زلت فارجع، وإذا أسأت فاندم، وإذا ندمت فاقلع.

– من صبر غنم، ومن سكت سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن

أطاع هواه ضل، ومع العجلة الندامة ومع التأنى السلامة.

- واختار العلماء أربع كلمات من أربعة كتب: فمن التوراة: من قنع شبع. ومن الإنجيل: من اعتزل نجا. ومن الزبور: من سكت علم. ومن القرآن: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾<sup>(١)</sup>. واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات: لا تحمل بطنك ما لا تطيق، ولا تعمل عملا لا ينفَعك، ولا تغتر بامرأة، ولا تثق بمال ولو أكثر<sup>(٢)</sup>.

## قصة وموعظة في الحكمة

مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة وهو يريد مكة، فأقام بها أياما. فقال: هل بالمدينة أحد أدرك أحد من أصحاب النبي ﷺ؟ فقالوا له: أبو حازم فأرسل إليه. فلما دخل عليه قال له: «يا أبا حازم ما هذا الجفاء؟». قال أبو حازم: «يا أمير المؤمنين وأى جفاء رأيت مني؟». قال: «أتانى وجوه أهل المدينة ولم تأتنى». قال: «يا أمير المؤمنين أعينك بالله أن تقول ما لم يكن، ما عرفتنى قبل هذا اليوم، ولا أنا رأيتك».

قال: فالتقت سليمان إلى محمد بن شهاب الزهري، وقال: «أصاب الشيخ وأخطأت». قال سليمان: «يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟». قال: «لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا، فكروهم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب». قال: أصبت يا أبا حازم فكيف القوم غدا على الله؟ قال: «أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالأبق يقدم على مولاه». فبكى سليمان، وقال: «ليت شعري ما لنا عند الله؟». قال: «اعرضي عملك على كتاب الله».

قال: «فى أى مكان أجده؟». قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾<sup>(١٣)</sup> وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ<sup>(١٤)</sup> ﴿<sup>(٣)</sup> قال سليمان: «فأين رحمة الله يا أبا حازم؟». قال أبو حازم: «إن رحمة الله قريب من المحسنين». قال له سليمان: «يا أبا حازم فأى عباد الله أكرم؟».

(١) سورة آل عمران الآية ١٠١.

(٢) راجع المستطرف في كل فن مستظرف فيه المزيد من الحكم ص ٣٠.

(٣) سورة الإنطار الآية ١٣ - ١٤.

قال: «أولو المروءة والنهي» .

قال له سليمان: «فأى الدعاء أسمع؟» .

قال أبو حازم: «دعاء المحسن للمحسن» .

قال له سليمان: «فأى الصدقة أفضل» .

قال: «للسائل البائس، وجهد المقل، ليس فيها من ولا أذى» .

قال له سليمان: «فأى القول أعدل؟» .

قال: «قول الحق عند من تخافه أو ترجوه» .

قال له سليمان: «فأى المؤمنين أكيس؟» .

قال: «رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها» .

قال له سليمان: «فأى المؤمنين أحمق؟» .

قال: «رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره» .

قال له سليمان: «أصبت» فما تقول فيما نحن فيه؟

قال: «يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا الملك عنوة على غير

مشورة من المسلمين ولا رضا لهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقد ارتحلوا عنها، فلو

شعرت ما قالوا وما قيل لهم» فقال له رجل من القوم: بئس ما قلت يا أبا حازم.

قال أبو حازم: «كذبت إن الله أخذ الميثاق على العلماء لِيُبَيِّنَنَّه للناس ولا يكتُمونه» .

قال له سليمان: «فكيف لنا أن نصلح؟» .

قال: «تدعون الصلف<sup>(١)</sup> وتمسكون بالمروءة، وتقسمون بالسوية» .

قال له سليمان: «كيف لنا بالمأخذ به؟» .

قال أبو حازم: «تأخذه من حله وتضعه في أهله» .

قال سليمان له: «هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك؟» .

قال: «أعوذ بالله» قال له سليمان: «ولم ذلك؟» .

قال: «أخشى أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف المات» .

قال له سليمان: «ارفع إلينا حوائجك» .

قال: «تنجينى من النار وتدخلنى الجنة؟» .

قال سليمان: ليس ذاك إلى.

قال أبو حازم: فمالى إليك حاجة غيرها.

(١) الصلف: التكبر والتفاخر.

قال له سليمان: «فادع الله لي» .  
قال أبو حازم: «اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخيري الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك  
فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى» .  
قال له سليمان: أوصني.  
قال: سأوصيك وأوجز: «عظم ربك، ونزهه أن يراك حيث نهاك. أو يفقدك حيث  
أمرك»<sup>(١)</sup> .



---

(١) بتصرف من موسوعة نضرة النعيم ج ١ ص ١٧٠٣.

## الفصل (الساوس) عشر

### الحياء

#### ١- أنواع الحياء:

الحياء قسمان: غريزي ومكتسب، والحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان، وهو المكلف به دون الغريزي.

وقد كان رسول الله ﷺ قد جمع له النوعان، فكان صلى الله عليه وسلم في الغريزي أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان في المكتسب في الذروة العليا.

وقال المناوي: الحياء نوعان: نفساني: وهو المخلوق في النفوس كلها كالحياء من كشف العورة والجماع بين الناس، وإيماني: وهو أن يبتنع المسلم عن فعل المحرم خوفا من الله. قال ابن القيم: الحياء ينقسم إلى عشرة أوجه:

– حياء جنائية: ومنه حياء آدم ﷺ لما فر هاربا في الجنة قال الله تعالى له: «أفراراً مني يا آدم؟» قال: لا يارب. بل حياء منك.

– حياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

– حياء الإجلال: وهو حياء المعرفة، وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

– حياء الكرم: كحياء النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطولوا الجلوس عنده، فقام واستحيا أن يقول لهم: انصرفوا.

– حياء الحشمة: كحياء علي بن أبي طالب ﷺ أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه.

– حياء الاستحغار واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه – عز وجل – حين يسأله حوائجه، احتقارا لشأن نفسه واستصغارا لها، وقد يكون لهذا النوع سببان:

أحدهما: استحغار السائل نفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياها.

الثاني: استعظام مسؤله (وهو المولى عز وجل).

– حياء المحبة: وهو حياء المحب من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه وأحس به في وجهه ولا يدري ما سببه.

– حياء العبودية: وهو حياء ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها، فعبوديته له توجب استيحاءه منه لا محالة.

– حياء الشرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء أو إحسان، فإنه يستحى مع بذله حياء شرف وعزة.

– حياء المرء من نفسه: وهو حياء النفوس الشريفة العريضة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون. فيجد نفسه مستحيا من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحى بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء، فإن العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحى من غيره أجدر<sup>(١)</sup>.

## ٢ - فضيلة الحياء.

إذا تخلق الإنسان بالحياء سارع إلى مكارم الأخلاق، ونأى عن رذائل الصفات، وكان سلوكه سلوكا نظيفا مهذباً فلا يكذب فى القول، ولا تطاوعه نفسه فى اقتراف الآثام، والحياء بهذا المعنى، هو الذى عناه الرسول ﷺ وهو يحض صحابته على التمسك به بقوله «استحيوا من الله حق الحياء» .

قالوا: يا نبي الله إننا لنستحى والحمد لله.

قال: «ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء:

أن تحفظ الرأس وما وعى.

وتحفظ البطن وما حوى.

وتذكر الموت والبلى.

ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» .

[رواه الترمذى]

فالحديث يشير إلى أن الحياء ليس هو التغيير والانكسار الذى يعترى الإنسان من خوف ما يذم عليه، ولكن الحياء يتمثل فى أمور:

( أ ) حفظ الحواس من السمع والبصر واللسان من أن تأتى منكرا أو تفعل ما تدم عليه.

( ب ) حفظ البطن من الشراهة وحفظها من أكل ما حرم الله، وحفظ الفرج من الزنا والرفث.

( ج ) ترك ما حرم الله من زينة الدنيا.

فهذا هو الحياء الكامل الذى يريده الله للناس.

والإنسان إذا تحلى به يبلغ نهاية الكمال، وإذا تخلى عنه سارع إلى الشر واسترسل فيه فلا يبالي حينئذ بالشتم والصخب والكذب، ولا بارتكاب أى محظور، مصداق ذلك الحديث الشريف: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» [رواه البخارى ومسلم].

(١) بتصريف من مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٧٢).

### ٣ - الحياء أصل لكل الخير:

قال ابن القيم - رحمه الله - خلق الحياء من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرا وأكثرها نفعا، بل هو خاصة الإنسانية، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم، كما أنه ليس معه من الخير شيء، ولولا هذا الخلق لم يُقَرَّ الضيف، ولم يوف بالعهد، ولم تؤد الأمانة، ولم تقض لأحد حاجة، ولا تحرى الرجل الجميل فأثره، والقبیح فتجنبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع عن فاحشة.

ذلك أن المسلم عفيف حى، والحياء خلق له، والحياء من الإيمان، والإيمان عقيدة المسلم وقوام حياته، يقول الرسول ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» [رواه مسلم].

ويقول: «الحياء والإيمان قرناء جميعا فإذا رفع أحدهما رفع الآخر» [رواه الحاكم].  
وسر كون الحياء من الإيمان أن كلا منهما داع إلى الخير صارف عن الشر، فالإيمان يبعث المؤمن على فعل الطاعات وترك المعاصى، والحياء يمنع صاحبه من التقصير فى الشكر للمنع، ومن التفريط فى حق ذى الحق، كما يمنع الحى من فعل القبيح أو قوله اتقاء للذم والملامة، ومن هنا كان الحياء خيرا، ولا يأتى إلا بالخير، كما صح فى الحديث الذى رواه البخارى عن رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتى إلا بخير» وقوله فى رواية مسلم: «الحياء خير كله» ونقيض الحياء البذاءة، والبذاءة فحش فى القول والفعل وجفاء فى الكلام، والمسلم لا يكون فاحشا ولا متفحشا، ولا غليظا ولا جافيا، إذ هذه صفات أهل النار، والمسلم من أهل الجنة - إن شاء الله - فلا يكون من أخلاقه البذاءة ولا الجفاء، وشاهد هذا قول رسول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان والإيمان فى الجنة والبذاءة من الجفاء والجفاء فى النار» [رواه مسلم].

### ٤ - الحياء والأمر بالمعروف:

الحياء الحقيقى لا يمنع من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.  
قال صاحب «فضل الله الصمد»: «فإن قيل: إن صاحب الحياء قد يستحى أن يواجه بالحق فيترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق، وغير ذلك مما هو معروف فى العادة، فأقول: إن ذلك ليس بحياء حقيقته، بل هو عجز وخور ومهانة، وإنما أطلقوا عليه حياء تشبيها ومجازا».

وخلق الحياء فى المسلم غير مانع له أن يقول حقا أو يطلب علما أو يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر، فقد شفع مرة عند رسول الله ﷺ أسامة بن زيد - حب رسول الله وابن حبه - فلم يمنع

الحياء رسول الله ﷺ أن يقول لأسامة في غضب: «أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟! والله لو سرق فاطمة بنت محمد لقطعت يدها» [رواه البخارى].

ولم يمنع الحياء أم سليم الأنصارية أن تقول: يا رسول الله إن الله لا يستحيى من الحق فهل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ .

فيقول لها الرسول ﷺ - ولم يمنعه الحياء - «نعم إذا رأته الماء» [رواه البخارى].  
وفى البخارى أيضا عن عائشة أنها قالت: «نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين» .

وخطب عمر مرة فعرض لغلاء المهور ومنع الغلو فيها فقالت له امرأة: أيعطينا الله وتمنعنا يا عمر، ألم يقل الله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ لِيُنظَرُوا فَلَآ تَأْخُذُوا بِمَنُ سَيِّئًا﴾ (١).  
فلم يمنعهما الحياء أن تدافع عن حق نسائهما، ولم يمنع عمر أن يقول معذرا: كل الناس أفتقه منك يا عمر (٢).

٥ - الإعراض عن الحياء:

يقول الشيخ سيد سابق:

«ولقد كان من نتائج الإعراض عن هذه التعاليم أن تفسى فى المجتمع الاستهتار بالقيم الرفيعة، والاستهانة بالتقاليد الحسنة، والتجرد من الفضائل الموروثة. وانتشرت الرذائل، وأخذت طريقها فى إفساد القلوب والعقول. فمن مناظر التبرج، وعرض مفاتن الجسد، إلى أغانٍ رخيصة، مبتذلة إلى كتب جنسية مثيرة، إلى قصص عابث، إلى صور فاضحة تنتشر فى الصحف والمجلات، إلى أفلام سينمائية خليعة تغرى بالفسق والفجور إلى كثير من أمثال هذه الفقائق التى تسلب الإنسان الحياء، وتزين له الشر وتغمسه فى الشهوات والآثام» .

فيجب على الآباء والمربين أن يأخذوا أبناءهم بهذا الخلق - الحياء - ويرشدوهم إلى ما ينبغى فعله، وما ينبغى تركه من الأقوال والأفعال.

وعليهم أن يتخيروا لهم الأصدقاء والأصدقاء من ذوى الأخلاق الحسنة، ويجنبوهم رفقاء السوء، ومخالطة التافهين والسفلة من الناس، وانتقاء الكتب الصالحة واختيار القصص التى لها تأثير خاص فى التوجيه الحسن، الذى له شأنه فى اكتساب هذا الخلق الكريم.

وبمثل هذه الأساليب ينشأ الأبناء النشأة التى تجعل منهم أفراداً صالحين للحياة، وعاملين للخير والنجاح.

(١) سورة النساء الآية ٢٠.

(٢) انظر منهاج المسلم/ أبو بكر الجزائري.

ومما تجب ملاحظته:

أن على الربى أن يكون حكيماً، فلا يبالغ في أخذ الناشئين بهذا الخلق حتى لا يصل إلى حد الخجل، فإن ذلك مفض إلى ضعف الشخصية، وصرف الناس عن ارتياد معالي الأمور، واقتحام المشاق، والجرأة فى الحق.

وبهذه التربية الحكيمة تصل النفس إلى أسمى ما فيها من سمو<sup>(١)</sup>.

٦ - حياء موسى عليه السلام:

جاء فى وصف موسى عليه السلام أنه كان حياءً ستيراً، فكان يستر بدنه، ويستحيى أن يظهر مما تحت الثياب شيئاً حتى مما ليس بعورة، وبسبب تستره الزائد آذاه بعض بنى إسرائيل بألسنتهم، فقالوا: ما يبالغ فى ستر نفسه إلا من عيب فى جسمه، أو من أدرة<sup>(٢)</sup> هو مصاب بها. روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن موسى كان رجلاً حياءً ستيراً، لا يرى شيئاً من جلده استحياء، فأذاه من آذاه من بنى إسرائيل، فقالوا: ما تستر هذا المتستر إلا من عيب أو أدرة، وإن الله أراد أن يبرئه، فخلا يوماً وحده ليغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فجمح موسى فى أثره يقول: ثوبى يا حجر، ثوبى يا حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل، فأروه عريانا أحسن ما خلق الله، وقالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه وطفق بالحجر ضرباً، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً» .

قصة موسى مع ابنتى شعيب:

... إن موسى بن عمران لما ورد ماء مدين وجد عليها رعاء يسقون ووجد من دونهم جاريتين تذودان، فسألتهما فقالتا: لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل، فقال: رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير، وذلك أنه كان جائعاً خائفاً لا يأمن، فسأل ربه ولم يسأل الناس. فلم يظن الرعاء وفطنت الجاريتان، فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاها بالقصة وبقوله، فقال أبوهما وهو شعيب عليه السلام: هذا الرجل جائع فقال لإحدهما اذهبي فادعيه، فلما أتته عظمته وغطت وجهها وقالت: إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، فشقق على موسى حين ذكرت أجر ما سقيت لنا، ولم يجد بداً من أن يتبعها، لأنه كان بين الجبال جائعاً مستوحشاً، فلما تبعها هبت الريح فجعلت تصفق ثيابها على ظهرها فتصف

(١) بتصريف من كتاب إسلامنا/ السيد سابق ص ١٣٨.

(٢) الأدره: هى انتفاخ فى الخصية بسبب فتق.

له عجيزتها، وكانت ذات عجز، وجعل موسى يعرض مرة ، ويغض مرة، فلما عيل صبره ناداها: يا أمة الله كوني خلفي، وأريني السميت<sup>(١)</sup> بقولك ذا، فلما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء مهياً، فقال له شعيب: اجلس يا شاب فتعش.

فقال له موسى: أعوذ بالله.

فقال له شعيب: لم، أما أنت جائع؟

قال بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضا عما سقيت لهما، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من ديننا بملء الأرض ذهباً.

فقال له شعيب: يا شاب، ولكنها عادتى وعادة آبائى، نقرى الضيف ونطعم الطعام، فجلس موسى فأكل.....<sup>(٢)</sup>. وبقية القصة يحكيها القرآن الكريم: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَرِيبَ الْأَمِينُ (٣١) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمْلِكَ مِنْكَ الْبَنِينَ فَاسْتَجِرْهُ لِنَسْتَجِرَّ بِكَ وَالنَّاسَ أَعْبَدُوا إِلَّا مَا كُنَّا لَكُمْ قُودًا مَلَأَتْ سِجِّينًا مِنْ حَجَرٍ مَكِينٍ فَانْفِرْ أَبْنَاءَ الْيَحْيَى خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَنِينَ وَالشَّيْطَانُ يَصْطَلِقُهُمْ عَلَى الْمَكِينِ (٣٢) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَى إِنَّكَ إِذْ مَنَّكَ اللَّهُ فَابْتَغِ شِعْرَةَ الْبُنْيَى وَأَنْتَ أَجْنَبِيٌّ عَالِيٌّ عَلَيْهِمْ تَمَنَّى فِطْرَتَهُمْ أَنْ يَبَدُلُوا عَهْدَهُمْ فِيهِمْ وَبِمَا كَفَرُوا بِهِمْ يَأْسِرُونَ (٣٣)﴾

٧ - حياء محمد صلى الله عليه وسلم:

وقد كان الرسول ﷺ شديد الحياء، أشد حياء من العذراء فى خدرها، روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى قال: «كان النبى ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه فى وجهه» .

عن أنس ؓ قال: «بنى النبى ﷺ بزینب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعياً، فيجىء قوم فيأكلون ويخرجون ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون» فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقلت: يا نبى الله ما أجد أحداً أدعوه، فقال: «فارفعوا طعامكم». وبقى ثلاثة رهط يتحدثون فى البيت، فخرج النبى ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله» فقالت: وعليكم السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلک، بارک الله لك، فتقرى<sup>(٤)</sup> حجرة نسائه كلهن، يقول لهم كما يقول لعائشة: ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبى ﷺ فإذا ثلاثة من رهط فى البيت يتحدثون وكان النبى ﷺ شديد الحياء فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة، فما أدرى أخبرته أو أخبر أن القوم خرجوا، فرجع حتى إذا

(١) السميت: الطريق.

(٢) أخرجه الدارمى (١٢٥/١).

(٣) سورة القصص الآية ٢٦ - ٢٧.

(٤) تقرى: تتبع الحجرات واحدة واحدة.

وضع رجله فى أسكفة<sup>(١)</sup> الباب داخلة وأخرى خارجه ارخى الستر بينى وبينه، وأنزلت آية الحجاب» [رواه البخارى].

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: إن امرأة من الأنصار قالت للنبي ﷺ كيف أغتسل من المحيض؟

قال: خذى فرصة مُمسكة - بها شيء من مسك - فتوضئى ثلاثا، ثم إن النبى ﷺ استحيا فأعرض بوجهه، أو قال «توضئى بها» فأخذتها فأخبرتها بما يريد النبى ﷺ» [رواه البخارى].  
ومن شدة حيائه صلى الله عليه وسلم كان لا يرى من زوجاته عوراتهن الكبرى، ولا يكشف أمامهن عورته، وفى هذا قالت السيدة عائشة - رضى الله عنها - «ما رأيت منه ولا رأى منى».

\*\*\*

---

(١) أسكاف الباب: عتبه.

## الفصل السابع عشر

### صلة الرحم

١- التعريف:

صلة الرحم لغة:

الصلة ضد الهجران، والتواصل ضد التراحم، واتصل الشيء بالشيء لم ينقطع.  
والرحم في اللغة: اسم يدل على الرقة والعطف والرحمة، وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضاً، والرحمن والرحيم اسمان مشتقان من الرحمة.  
صلة الرحم اصطلاحاً:

قال النووي: صلة الرحم هي الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول، فتارة تكون بالمال وتارة بالخدمة، وتارة بالزيارة والسلام وغير ذلك.  
وقال ابن منظور: هي كناية عن الإحسان إلى الأقربين من ذوى النسب والأصهار، والعطف عليهم، والرفق بهم، والرعاية لأحوالهم، وكذلك إن بعدوا أو أساءوا<sup>(١)</sup>.

٢- حكم الصلة ودرجاتها:

قال القاضي عياض: ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة، والأحاديث تشهد لهذا، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك بالقدرة والحاجة، فمنها واجب ومنها مستحب، فلو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعاً، ولو قصر عما يقدر عليه ومطلوب منه لا يسمى واصلاً<sup>(٢)</sup>.

٣- معنى الصلة ومعنى القطيعة:

المعنى الجامع للصلة: هو إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر حسب الطاقة.  
ومعنى قطيعة الرحم - كما قال الزين العراقي - : هو الإساءة إلى الرحم، وقال غيره: تكون القطيعة بترك الإحسان، لأن الأحاديث آمرة بالصلة ناهية عن القطيعة، فلا واسطة بينهما، والصلة نوع من الإحسان والقطيعة ضدها وهي ترك الإحسان.

(١) انظر لسان العرب لابن منظور، ومسلم بشرح النووي.

(٢) شرح النووي على مسلم (١٦٦ / ١١٣).

بم تكون الصلة؟

تكون الصلة بزيارتهم، وتفقد أحوالهم، وإكرامهم، والإهداء إليهم، والتصدق على فقيرهم باعتبارها أحق من الفقير البعيد، وتكون بتعهد مرضاهم، ومشاركتهم في مسراتهم ومواساتهم في أحزانهم، وتقديمهم على غيرهم في كل أمرهم أحق به من غيرهم بسبب قرابتهم، وتكون أيضاً بسداد الدين أو المساعدة في سداه وإغاثة اللهفان... إلخ أما قطيعتهم فتكون بهجرهم، والإعراض عن زيارتهم المستطاعة وعدم مشاركتهم في مسراتهم، وعدم مواساتهم في أحزانهم، وتكون بتفضيل غيرهم عليهم في الصلات والعطاءات الخاصة التي هم أحق بها من غيرهم.

هذا... وصلة الرحم وقطيعتها ثلاث درجات:

(أ) واصل: وهو الذي يصل من قطعه، ويعطى من منعه.

(ب) مكافئ: وهو الذي يصل من وصله، ويقطع من قطعه.

(ج) قاطع: وهو الذي لا يصل ولا يوصل، ولا يعطى ولا يأخذ، وأشد منه من يصله غيره

وهو يقاطعه، ويعطيه غيره وهو يمنعه.

٤ - فضل صلة الرحم وثوابها:

صلة الرحم مما يكافئ الله عليه في الدنيا ببسط الرزق وإطالة العمر، وهذا ثواب معجل يتسابق عليه معظم الناس، وهو زائد على ثواب الآخرة الذي ادخره الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات في جنة عرضها السموات والأرض.

روى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره، فليصل رحمه».

ينسأ: أى يؤخر، والمراد من الأثر: الأجل والعمر:

روى البخارى ومسلم - أيضاً - عن أبى أيوب الأنصارى أن رجلاً قال:

يا رسول الله أخبرنى عن عمل يدخلنى الجنة؟

فقال النبى ﷺ: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصل الرحم».

وعن عائشة - رضى الله عنها - عن النبى ﷺ قال: «الرحم متعلقة بالعرش تقول:

من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعته الله» [رواه مسلم].

وعن سلمان بن عامر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان. صدقة وصله» [رواه الترمذى].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - عن النبي ﷺ قال:  
 «ليس الواصل بالمكافئ ولكن الرامل نئذى إذا قطعت رحمه وصلها» [رواه البخارى].  
 وعن أئى حزميرة ؓ أن رجلا قال: «يارسول الله: إن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى، وأحسن  
 إليهم ويسئوننى إلى، وأحلم عليهم ويجهلون على، فقال: إن كنت كما قلت فكانما تُسفهم الملّ»<sup>(١)</sup>  
 ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك» [رواه مسلم].

#### ٥- جزاء قطيعة الرحم:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾<sup>(٢)</sup>.

وعن أبى هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم  
 قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ بك»<sup>(٣)</sup> من القطيعة قال: نعم. أما ترضين أن أصل من  
 وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك لك، ثم قال رسول الله ﷺ اقرعوا إن شئتم:  
 ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾<sup>(٤)</sup> أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ  
 فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾<sup>(٥)</sup> [رواه البخارى].

وعن جبير بن مطعم ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع رحم».

[رواه البخارى ومسلم]

وعن أبى بكر ؓ: أن رسول الله ﷺ قال:

«ما من ذنب أجد أن يعجل لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخره له فى الآخرة من  
 البغى وقطيعة الرحم» [رواه ابن ماجه].



(١) المل: الرماد الحار.

(٢) سورة الرعد الآية ٢٥.

(٣) العائذ بك: المستجير بك.

(٤) سورة محمد الآيات ٢٢ - ٢٣.

## الفصل الثامن عشر

### العدل

#### ١- فضيلة العدل:

يحرص الإسلام أشد الحرص على المحافظة على حقوق الإنسان، ودمائهم وأعراضهم، وأموالهم. كما يعنى أشد العناية بصيانة حرياتهم وكراماتهم، ويتخذ لذلك جديع الوسائل التى تحفظ هذه الحقوق ومن هذه الوسائل إقامة الحق، والعدل بين الناس؛ ذلك أن إقامة الحق، والعدل هى التى تشيع الطمأنينة، وتنشر الأمن، وتشهد علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وتقوى الثقة بين الحاكم والمحكوم وتنمى الثروة، وتزيد فى الرخاء، وتدعم الأوضاع فلا تتعرض لخلخلة، أو اضطراب، ويمضى كل من الحاكم والمحكوم إلى غايته فى العمل، والإنتاج، وخدمة البلاد، دون أن يقف فى طريقه ما يعطل نشاطه، أو يعوقه عن النهوض.

وقد جاءت الآيات والأحاديث داعية إلى العدل، ومحذرة من الظلم، ومحرمة له.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالعدل فى كثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (١).

وأمر بالعدل حتى مع الأعداء: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٢).

وأمر بالعدل بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إلى المسلمين قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (٣).

وقال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن - عز وجل - وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا» [رواه مسلم].

والله سبحانه وتعالى من أسمائه العدل. وما أنزل كتبه، ولا أرسل رسله، ولا كلف الناس بالشرائع، إلا لأجل إقامة الحق والعدل.

(١) سورة النساء الآية ٥٨.

(٢) سورة المائدة الآية ٨.

(٣) سورة المائدة الآية ٤٢ - ٤٨.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بَاطِنِينَ، وَأَتَرْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ  
وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرُهُ وَرُسُلَهُ، بِالْعَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ  
عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾<sup>(١)</sup>

وبالعدل قامت السماوات والأرض.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ  
وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾<sup>(٢)</sup>

وإقامة العدل إحدى وظائف رسول الله ﷺ التي كلف بها.

﴿وَقُلْ عَمَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا  
أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣٠﴾﴾<sup>(٣)</sup>

والعدل ميزان الله تعالى في الأرض الذي يأخذ به للضعيف من القوى وللمحق  
من الميطل.

كما أن عدل الملك يوجب محبته، وجوره يوجب الافتراق عنه، وأفضل الأزمنة ثواباً أيام  
العدل، ويقال: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان، وقيل: إذا رغب السلطان عن العدل  
رغبت الرعية عن طاعته.

وسأل الاسكندر حكماء أهل بابل أيهما أبلغ عندكم: الشجاعة أو العدل؟  
فقالوا: إذا استعملنا العدل استغينا به عن الشجاعة، ومن كلام كسرى: لا ملك إلا بالجند،  
ولا جند إلا بالمال، ولا مال إلا بالبلاد، ولا بلاد إلا بالرعايا، ولا رعايا إلا بالعدل<sup>(٤)</sup>.

٢ - دعوة الإسلام إلى العدل والمساواة:

قال عليه الصلاة والسلام:

- لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان [ اللؤلؤ والمرجان ٢ / ٢٢٦ ] .

- ما من عيد أسترعاه الله وعيته فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة

[ اللؤلؤ والمرجان ١ / ٣٠ ]

- انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا إن تفضله بتقوى الله [ كنز العمال ٢ / ٢٢ ] .

(١) سورة الحديد الآية ٢٥.

(٢) سورة الرحمن الآيات ٧ - ٩.

(٣) سورة الشورى الآية ١٥.

(٤) انظر المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيبي.

– المسلمون تتكافؤ دماؤهم، ويسعى بذمتهم <sup>(١)</sup> أدناهم، وهم يد عنى من سواهم .

[ البيان والتبيين ٢ / ١٩ ]

– من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله عز وجل .

– من كانت له نورتان قاتلت إلى إحداهما يوم الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل .

[ الإحياء ٢ / ٤٤ ]

– من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كافه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه فأنا

حجيجه يوم القيامة .

– من ابتلى بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم فى لحظه وإشارته ومقعده ومجلسه .

[ الجامع الصغير ٢ / ٣٣٧ ]

– اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً فإنه ليس دونه حجاب [ كنز العمال ٢ / ٢٢ ] .

– الناس كلهم سواء كأسنان المشط [ البيان والتبيين ٢ / ١٩ ] .

من مظاهر عدله ﷺ

استقى النبى ﷺ العدل من التربية الإلهية والأخلاق القرآنية، وكانت فطرته السليمة

مهياً للعدل منذ شبابه، وإليك بعض الشواهد على عدله ﷺ .

– شكت إليه ابنته فاطمة ماتلقى من مشقات فى أعمالها بمنزلها، وطلبت منه خادماً من

السبى يكفيها مؤونة العمل، فأمرها أن تستعين بالتسييح والتكبير .

وقال لها: لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع .

فآثر عليها فقراء المهاجرين الذين كانوا يقيمون بسقيفة المسجد وليس لهم مرتزق <sup>(٢)</sup> .

– سرقت امرأة مخزومية، فأحزن قريباً شأنها، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله؟ ومن

يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حبيبه؟

فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: أتشفع فى حد من حدود الله؟ ثم قام فخطب وجاء فى

خطبته قوله: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق

فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» .

[ رواه البخارى ومسلم ]

المجالات التى يدخل فيها العدل

وللعدل مجالات متعددة. نجلها فيما يلى:

(١) الذمة: الأمان.

(٢) شرح الزرقانى (٤ / ٣٠٢) .

## (أ) العدل فى الحكم:

عدل الحاكم بين رعاياه، وحبه لشعبه وإخلاصه له، وحنوه عليه، من شأنه أن يوثق الصلة بين الحاكم والمحكوم، ويربط بينهما برباط موثق لا تنفصم عروته، ولا تهين قوته، فتشيع الطمأنينة، وتستقر الأوضاع، ويعضى كل إلى غايته.

فبينما الحاكم يعمل دائماً على إصلاح أمته، والنهوض بها إذ المحكوم يتجاوب معه، ويضطلع بعبء الإصلاح عن رضا واختيار، وقد أظل الجديع ألوية الأمن والسلام.

روى القرمذى أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله تعالى، وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر» .

والمثل الأعلى للحاكم، ماجاء فى وصف الحسن البصرى له، وهو يبعث برسالة إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز. قال:

اعلم يا أمير المؤمنين: أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفرج كل ملهوف، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله، الذى يرتاد لها أطيب المرعى، ويزودها عن مواقع الهلكة، ويحميها من السباع. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالأب الحفى على ولده، يسعى لهم، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم فى حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة، الرفيقة بولدها، حملته كرها ووضعته كرها، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفظمه أخرى، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى، وخازن المساكين، يربى صغيرهم ويمون كبيرهم.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله، ويريههم وينقاد إلى الله، ويقودهم.

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله، كعبد اتئمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله فيبدد المال، وشرذ العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله<sup>(١)</sup>.

## (ب) العدل فى القضاء:

والعدل واجب على القاضى حتى يأخذ كل نى حق حقه، وإلا اختل النظام وأهدرت الدماء والأعراض والأموال، وضاع المظلوم دون أن يجد من ينصفه.

(١) بتصرف من كتاب عناصر القوة فى الإسلام/ السيد سابق.

قال الشافعي: (ينبغي للقاضي أن يسوى بين الخصمين في خمسة أشياء):

- في الدخول عليه.

- والجلوس بين يديه.

- والإقبال عليهما.

- والاستماع لهما.

- والحكم عليهما.

وحاصل الأمر فيه: أن يكون مقصود القاضي بحكمه الفصل بين الحكماء بإعطاء كل ذي حق حقه وبإلزام الذي عليه الحق بأن يدفعه إلى مستحقه.

وفى الحديث يقول الرسول ﷺ: «القضاة ثلاثة، واحد في الجنة واثنتان في النار، أما الذي في الجنة فرجل عرف الحق ف قضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى الناس على جهل فهو في النار» [رواه أبو داود].

(ج) وجوب العدل بين الزوجات:

أباح الله تعدد الزوجات وقصره على أربع، وأوجب العدل بينهن في الطعام والسكن والكسوة والمبيت، وسائر ما هو مادي، من غير تفرقة بين غنية وفقيرة وعظيمة وحقيرة، فإن خاف الرجل الجور وعدم الوفاء بحقوقهن جميعاً، حرم عليه التعدد، قال تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنِ فَاذْكُرُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنٍ وَهُنَّ كَأَمْسَالِ يَدَيْكُمْ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ بَدَأَ قَدْ خَلَقْتُمْ وَأَلَّا تَجُورُوا. (١) ﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (من كانت له امرأتان فمال إلى إحداها جاء يوم القيامة وشقه مائل).

ولا تعارض بين ما أوجبه الله من العدل في هذه الآية، وبين مانفاه في الآية الأخرى، وهي: ﴿ وَكُنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمَعْلُوقَةِ وَإِنْ تَضِلُّوا وَتَخَفُوا فَايُّكُمْ فَاتَّكِلُوا عَلَى اللَّهِ كَانَ عَفْوَاً رَحِيماً (٣) ﴾ (١).

فإن العدل المطلوب: هو العدل الظاهر المقدر عليه، وليس هو العدل في المودة والمحبة، فإن ذلك لا يستطيعه أحد، وقد كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه، فيعدل، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك».

(١) سورة النساء الآية ٣.

(٢) سورة النساء الآية ١٢٩.

#### (د) العدل بين الأولاد:

وقد أوجب الإسلام العدل بين الأولاد، ونهى عن التفضيل بينهم فى الملك والهبة، لأن تفضيل بعضهم على بعض يفضى إلى العقوق، ويفسد ذات البين، ويقطع الصلات التى أمر الله بها أن توصل.

فعن النعمان بن بشير: أن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: إني نحلته ابني هذا غلاماً كان لى، فقال النبى ﷺ: أكل ولدك نحلته مثل هذا؟ فقال: لا. فقال الرسول ﷺ فأرجعه.

[رواه البخارى].

وفى رواية لمسلم أنه قال: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم».

وهذا المنع إذا لم يكن هناك عذر يبيح التفضيل، فإن كان ثمة عذر يبيحه فلا مانع. فإذا فضل الأب ذا الحاجة على الغنى، وذا العاهة على السليم، أو الطائع على العاصى، أو البار على العاق، فإن ذلك جائز شرعاً. وقد سبق توضيح هذه المسألة.

#### (هـ) العدل فى القول والشهادة والكتابة:

والعدل واجب فى القول والكتابة، بمعنى أن يقول، ويكتب الإنسان الحق، ولا يعدل عن الصدق إلى غيره:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (١).

- ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ﴾ (٢).

- ﴿وَاقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ (٣).

#### (و) العدل بين المتخاصمين:

وإذا وقع خلاف أو خصام بين طوائف المسلمين أدى إلى القتال، وجب على طائفة محايدة من المسلمين أن تتدخل لحسم هذا النزاع، والصلح بينهما على أساس الحق والعدل:

﴿وَلَيْن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغْت إِحْدَهُمَا عَلَى الْآخَرَىٰ فَقَاتِلُوا إِلَىٰ بَيْتِى حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيَّ أَمْرُ اللَّهِ فَإِن فَاتَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٤).

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٢.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٢.

(٣) سورة الطلاق الآية ٢.

(٤) سورة الحجرات الآية ٩.

(ز) العدل مع الأعداء:

والعدل يجب أن يكون بين الناس جميعا، من غير تفرقة بين قوى وضعيف، ولا بين مسلم وغير مسلم، ولا بين عربى وعجمى، ولا بين صديق وعدو... إلخ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ يَلْقَسُطُ شَهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أُولَ الَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ  
إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرْتُمْ فَإِنَّ  
اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١).

(ح) الكيل والميزان:

ويكون العدل فى الكيل والوزن بأن يكيل ذو الكيل ويوزن ذو الوزن بالقسطاس المستقيم، وبما يساوى الحق الذى تم عليه التراضى، ولأهمية هذا جعل الميزان رمزاً لإقامة العدل.

أثر العدل فى المساواة

جاء الإسلام والناس طبقات، والعرب درجات، فسوى بينهم مساواة حقيقية واقعية لم يعرف العالم مثلها من قبل ولا من بعد، فلا عبدة بالحسب ولا بالمال ولا بالجاه ولا باللون، بل العبدة بالأخلاق الفضلى وبالتدين الصحيح، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟

قالوا: نعم، قال: ليبلغ الشاهد الغائب (٣).

وقال - أيضا - : «قد أذهب الله عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء: مؤمن تقى، وفاجر شقى، والناس بنو آدم، وآدم من تراب» [رواه أبو داود].  
وقد كان العدل من أقوى البواعث على هذه المساواة.



(١) سورة النساء الآية ١٣٥.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٣) كنز العمال (٢ / ٢٢).

## الفصل التاسع عشر

### العفو والصفح

١- العفو في القرآن الكريم:

قال ابن الجوزي: ذكر أهل التفسير العفو في القرآن الكريم على أربعة أوجه: أحدها: الصفح والمغفرة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾<sup>(١)</sup>. والثاني: الترك، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النَّكَاحِ﴾<sup>(٢)</sup>. والثالث: الفاضل من المال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ﴾<sup>(٣)</sup>. والرابع: الكثرة، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا﴾<sup>(٤)</sup>.  
الفرق بين العفو والصفح:

الصفح والعفو متقاربان في المعنى فيقال: صفحت عنه أي أعرضت عن ذنبه إلا إن الصفح أبلغ من العفو. فقد يعفو الإنسان ولا يصفح، وصفح عنه: أوليته صفحة جميلة<sup>(٥)</sup>.  
٢- فضيلة الصفح:

قد ندب الله عز وجل نبيه ﷺ إلى الصفح والعفو بقوله: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾<sup>(٦)</sup>. وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾<sup>(٧)</sup>. وقال تعالى: ﴿وَأَلْكَظِيمِينَ الْعَقِيظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٨)</sup>. وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله كم نعتو عن الخادم؟ فصمت، ثم أعاد عليه الكلام، فصمت، فلما كان في الثالثة، قال: «اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة» [رواه أبو داود].

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٥.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٧.

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٩.

(٤) سورة الأعراف الآية ٩٥.

(٥) بصائر ذوى التمييز (٣ / ٤٢١).

(٦) سورة الحجر الآية ٨٥.

(٧) سورة الأعراف الآية ١٩٩.

(٨) سورة آل عمران الآية ١٣٤.

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: قلت يا رسول الله، أ رأيت إن علمت أى ليلة ليلة القدر. ما أقول فيها؟

قال: «قولى اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فأعف عني» [رواه الترمذى].  
وقال الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى مناد، من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا العافون عن الناس، وتلا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (١).  
وقال على ؑ أولى الناس بالعفو أقدروهم على العقوبة.  
وقال أيضاً: إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه، وقال ؑ: أقبيلوا ذوى المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلا ويده بيد الله يرفعه.  
٣ - العفو خلق الرسول ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٢).  
قال القرطبي: هذه الآية من ثلاث كلمات تضمنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيات.  
فقوله: «خذ العفو» دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين.  
وقوله «وأمر بالعرف» صلة الأرحام، وتقوى الله فى الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

وقوله: «وأعرض عن الجاهلين» الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة.  
وقال القرطبي: هذه الخصال تحتاج إلى بسط، وقد جمعها رسول الله ﷺ لجابر بن سليم - قال جابر بن سليم: ركبت قعودى ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله ﷺ، فأنخت قعودى بباب المسجد، فدلونى على رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس عليه برد من صوف فيه طرائق حمر، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فقال: «وعليك السلام». فقلت: إنا معشر أهل البادية، قوم فينا الجفاء، فعلمنى كلمات ينفعنى الله بها. قال: «ادن» ثلاثاً، فدنوت فقال: «أعد على» فأعدت عليه فقال: «اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئاً وأن تلق الله بوجه منبسط وأن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى وإن امرؤ سبك بما لا يعلم منك فلا تسبه بما تعلم فيه فإن الله جاعل لك أجراً وعليه وزراً، ولا تسبن شيئاً مما خولك الله تعالى».

قال أبو جريء: فوالذى نفسى بيده ما سببت بعده شاة ولا بعيراً. [أخرجه أبو بكر البزار].

(١) سورة الشورى الآية ٤٠.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٩.

وفى قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ خطاب من الله تعالى لنبيينا عليه السلام، ثم إنه تأديب لجميع خلقه.

روى البخارى عن عبد الله بن عباس قال: قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحر ابن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً.

فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى هل لك وجه عند هذا الأمير فتستأذن لى عليه؟ قال سأستأذن لك عليه، فاستأذن لعيينة، فلما دخل قال يا ابن الخطاب، والله ماتعطينا الجزل<sup>(١)</sup> ولا تحكم بيننا بالعدل.

قال: فغضب عمر حتى هم بأن يقع به.

فقال الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله قال لنبيه ﷺ ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين، فوالله ماجاوزها عمر حين تلاها عليه حتى عفا عنه وكان وقافاً عند كتاب الله<sup>(٢)</sup>.



(١) الجزل: الكثير من الشيء.

(٢) انظر تفسير القرطبي ج ٧ ص ٣٤٥.

## الفصل العشرون

### القناعة

#### ١- فضيلة القناعة:

إن من أجل مواهب الله لعباده وأعظمها أثرا القناعة، فليس شيء أروح للبدن من الرضا بالقضاء، والثقة بما عند الله، والقناعة بالقليل. ولو لم يكن في القناعة خصلة تحمد إلا الراحة وعدم الدخول في مواضع السوء لطلب المزيد والكثير لكان الواجب على العاقل ألا يفارق القناعة على أي حال من الأحوال.

وإن من حرم القناعة لم يزد به المال غنى، فتمتع المرء بالمال القليل مع قلة الهم أهنا من المال الكثير المحمل بالأوزار والتبعات وحقوق العباد، وربما جره الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق وارتكاب الآثام المنافية للمروءات، وقد جبل بنو آدم على الحرص والطمع وقلة القناعة، قال رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم واد من ذهب لأحب أن يكون له ثان ولو كان له الثاني لأحب أن يكون له ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب. ويتوب الله على من تاب». [أخرجه أحمد]. وقال أيضاً: «منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال» [رواه الطبراني].

ولما كان الجشع والطمع [عافاك الله] من أقبح الخلائق وأعظم الآفات الدينية وأكبره الخصال الذميمة التي لا يزال صاحبها - أبداً - مذموماً، فقد أتى الله تعالى ورسوله على القناعة، فقال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس» [رواه البخاري]. ونهى عن شدة الحرص والمبالغة في الطلب فقال: «أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له، ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راغمة». [أخرجه الحاكم]

وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال: أي عبادك أغنى؟ قال أقتنعهم. قال: فأيهم أعدل؟ قال: من أنصف من نفسه.

وتهمى رسول الله ﷺ عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصاري: أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يارسول الله، عظني وأوجز فقال: «إذا صليت فصل صلاة مودع، ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غداً، واجمع اليأس مما في أيدي الناس» [رواه ابن ماجه]. وقال عمر رضي الله عنه: «إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، إنه من ييأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «مامن يوم إلا وملك ينادى: يا بن آدم، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك. وقال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غما الحسود، وأهانهم عيشا القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريرى إذا طمع، وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرط» .

## ٢ - الأسباب المؤدية إلى القناعة:

ينبغي أن نعلم أن الأسباب أو الوسائل المؤدية إلى اكتساب صفة القناعة والتخلي عن الطمع كثيرة ومهمة: فمنها الاقتصاد في المعيشة، ومنها ألا ينشغل بالمستقبل، ومنها أن يعرف عز القناعة وذل الطمع، ومنها التأمل في تنعم المترفين من الأغنياء، وزهد الأنبياء، وآخرها علمه بما في المال من الخطر وما في الإقلال منه من الأمان وراحة البال.

وقد أفاض الإمام الغزالي في الكلام على هذه الأسباب وإليك خلاصة ما قال:

الأول: وهو الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق، فمن أراد عز القناعة فينبغي له أن يبعد نفسه عن الحرص والطمع وطول الأمل ويرد نفسه إلى ما لا بد منه ويوطن نفسه عليه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث منجيات خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب» [البيهقي].

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة» [أخرجه أبو داود] فالإقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق من أهم الأمور.

الثانى: أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد القلق لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل، والتحقق بأن الرزق الذى قدر له لا بد سيأتيه، وينبغي له أن يعلم أن شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق، بل ينبغي أن يكون واثقاً بوعد الله عز وجل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾<sup>(١)</sup> وذلك لأن الشيطان يعده الفقر ويأمره بالفحشاء ويوسوس له أنه إذا لم تحرص وتجمع وتدخر فربما تعجز وتضعف ويتشرد أولادك وأهلك من بعدك.. فلا يزال طول الأمل يتعبه في الطلب خوفاً من الفقر، بل ينبغي له أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۗ ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۗ﴾<sup>(٢)</sup> فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغي له أن يضطرب قلبه لأجله.

(١) سورة هود الآية ٦.

(٢) سورة الطلاق الآيات ٢ - ٣.

وقال سفيان: اتق الله فما رأيت تقياً محتاجاً، أى لا يترك التقى فاقداً لقوته بل يلتقى الله فى قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه.

الثالث: أن يعرف مافى القناعة من عز الاستغناء عن الناس ومافى الحرص والطمع من الذل، فإذا عرف هذا اتجهت همته إلى القناعة لأنه فى الحرص لا يخلو من تعب، وفى الطمع لا يخلو من ذل، أما القناعة ففيها الحرية والعز، مصداق ذلك قول الرسول ﷺ: «عز المؤمن استغناؤه عن الناس» [أخرجه الطبرانى] ولذلك قيل: استغن عن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره.

الرابع: أن يكثر تأمله فى تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس ممن لا دين لهم ولا عقل. ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء، وإلى صفات الخلفاء الراشدين، وسائر الصحابة والتابعين، ويستمتع أحاديثهم ويطلع أحوالهم، ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس أو على الاقتداء بمن هم أعز أصناف الخلق عند الله حتى يهون عليه بذلك الصبر على ضنك المعيشة والقناعة باليسير.

الخامس: أن يفهم مافى جمع المال من الخطر، ومافيه من خوف السرقة والنهب والضياع، ومافى خلو اليد من الأمن والفراغ وراحة البال. وأن ينظر إلى من دونه فى الدنيا لا إلى من فوقه. قال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» [رواه مسلم].  
وأن يعلم أن غاية صبره فى الدنيا أيام قلائل للتمتع دهنراً طويلاً، فيكون كالمرضى الذى يصبر على مرارة الدواء لشدة طمعه فى الشفاء<sup>(١)</sup>.

### ٣ - القناعة والمال:

المال ضرورى للحياة والحاجة إليه لازمة لكل البشر، ومن عدم المال الذى هو مادة الحياة لم يستقم له دين ولادنيا، ولحقه الوهن فى نفسه ومروءته وأخلاقه. وأسباب كسب المال كثيرة متنوعة ترجع إلى أصول ثلاثة هى الزراعة، والتجارة والصناعة، وماعداها من الأعمال متفرع عنها وراجع إليها.

والمال ليس من الكمال الذى يطلب لذاته كالعلم وفضائل الأخلاق وإنما يطلبه من يطلبه لأمر: • منها منازعة الشهوات التى لاتنال إلا بوفر المال: وليس لشهوات المرء حد تقف عنده ولا غاية تصل إليها، وإنما همه جمع المال وكثرتة، لا يحل فيه حلالاً ولا يحرم حراماً ولا يؤدي فيه حق الله أو الناس، ولهذا يكون حظه من الهموم ومنغصات الحياة أضعاف

(١) يتصرف كثير من إحياء علوم الدين للغزالي ج ٣ ص ٣٥٢.

ماناله من لذائذ جمع المال وكنزه، والذي معه قوت يومه وقنع به في سلامة من جميع ذلك، وهذه حال لا يكف المرء عنها في الغالب عقل زاجر ولا قانون وازع، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه» [رواه مسلم].

● ومنها أن يطلب المال ويلتمس كثرته لينفقه في وجوه البر ويصطنع به المعروف عند أهله، وصاحب هذا أجدر بالحمد والثناء وأحرى بالتبجيل وأولى باحترام الناس، وبقدر ما يبذل في ذلك من الإفادة والتضحية يكون حظه من الخير وحسن العاقبة. ومن فعل هذا فقد أحسن استغلال المال ووضعه في خير موضع، لأن المال آلة للمكارم وعون على الدين ومتألف للإخوان والأحباب، ومن فقدته من الناس قلت الرغبة فيه واستهان به الناس حتى أقاربه الأدينين وخلاته الأوفياء، ولهذا قيل: (من استغنى كرم على أهله) ولعظم خطره سماه الله خيراً في كثير من آياته قال تعالى: ﴿إِنِّي أَرِنُكُمْ بِخَيْرٍ﴾<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَخَيْرٌ لَّشَدِيدٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال: ﴿وَمَا تَنْفَعُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِيَكُمُ﴾<sup>(٣)</sup>.

وتواترت أقوال الحكماء والكتب السماوية في مدحه وتحبيب الناس في طلبه.

قال بعض الحكماء: «من أصلح ماله فقد صان الأكرمين: الدين والعرض».

وقد اعتبره القرآن الكريم زينة الحياة الدنيا وجعله في منزلة البنين، قال تعالى:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾<sup>(٤)</sup>. وعد العلماء الغنى خيراً من الصبر فقالوا غنى

شاكر أفضل من فقير صابر.

● ومنها أن يطلب المال ليدخره لولده - في المستقبل - مع يخله به على نفسه في أمور دينه ودنياه. وهذا من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؛ لأنه مأخوذ بما جمع سئ الظن بالله واثق ببقاء هذا المال على ولده، وهو عرض زائل وظل منتقل ودولة بين الناس، وأسوأ ما يعقبه هذا العمل أن يصرف الأبناء عن السعى في طلب العلم والمعاش لاعتمادهم على ماسيصر إليهم من مال آبائهم، ولقد كان هذا سببا في فساد أخلاق كثير من الشبان وانصرافهم إلى اللهو واللعب وتمادوا في الخمول والكسل حتى أضاعوا كل ماورثوه من مال، وتبع هذا فقدان الشرف والصحة لأنهم عاطلون بالوراثة.

(١) سورة هود الآية ٨٤.

(٢) سورة العاديات الآية ٨.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٧٢.

(٤) سورة الكهف الآية ٤٦.

● ومنها أن يجمع المال حبا فيه من أجل جمعه وكنزه، وهذا أسوأ الناس حالاً، وأكثرهم عناء بما جمع من المال وما يستلزمه من التدبير والقيام عليه لحفظه من الضياع أو النقصان، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَتَّقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِئْسَ لَهُم بَعْدَ ذَلِكَ أَلِيمٌ﴾ (٣٤). ومن كانت غايته جمع المال وادخاره استولى عليه بعد الأمل، وهو سبب الشح الذي يصيب كثيراً من الناس فيصرفهم عن أداء الحقوق الواجبة لله ولأنفسهم وللناس، ويبعثهم على التورط في المحرمات وما يستهلك دينهم وأعراضهم وأخلاقهم إذا ليس للحريص غاية يقف عندها ولانهاية يقنع بالوصول إليها. وليس ينجى الإنسان من شرك استعباد المال وخطر استهوائه للأفئدة غير القناعة، فإنه لاغنى إلا بغنى النفس، ومن لزم القناعة زالت عنه صفة الفقر (٣).

#### ٤ - درجات القناعة:

ملاك القناعة الرضا والانصراف عما يثير في النفس الحرص والجشع، وطلب الدنيا بأسباب لا تحل مباشرتها. وتتفاوت درجات القناعة في الناس على الوجه التالي:

(أ) نوع من الناس يرضى بما تبلغ به دنياه، ويتصرف عن كل مأسواه، وهذه الحال وإن كانت تستريح إليها نفوس كثير من الناس إلا أنهم أشبه بالعجزة واليوق بالكسالى وأمثالهم من المهملين من الناس الذين لا يرون لهم حظاً من دنياهم يجب أن يحرصوا على طلبه ويجدوا في إدراكه.

(ب) نوع آخر أفضل من سابقه يطلب ما يكتفيه من الدنيا لنفسه ولأهله ولأصحاب الحقوق عليه، ولا يمدن عينه إلى ما وراء ذلك مما يزيد عناءه ويكثر آلامه، وهذه حال لا بأس بها لمن أراد أن يبقى على نفسه وشرفه.

(ج) ومنهم من يقنع بما سئح له قليلاً كان أو كثيراً، وتقر عينه بما صار إليه من متاع الدنيا. وإن فاتته شيء منها لم يجتهد في طلبه، ولم يحزن لفوته، لعلمه أنه لا شيء من خير الدنيا وشرها إلا وهو بقدر، فما كان له منها أصابه على ضعفه. وما كان عليه منها لم يدفعه بقوته، وهذه حال كثير من العقلاء ممن فيهم أناة وصبر وحسن تصريف للأمور ونظر في العواقب مع عدم استسلامهم لهوى النفس وخدعها الكاذبة، وهؤلاء يصيرون إلى راحة البال واطمئنان النفس وعدم المؤاخنة.

ومن لزم القناعة اتصف بكثير من صفات الكمال: كعزة النفس، والمروءة، والشرف، والسخاء، واستبقى لنفسه راحة البال والطمأنينة (٣).

(١) سورة التوبة الآية ٣٤.

(٢) بتصرف بن الخلق الكامل/ محمد جاد المولى.

(٣) المصدر السابق نفسه.

## ٥ - من قصص الصالحين فى القناعة:

دخل على بن أبى طالب عليه السلام المسجد، وقال لرجل كان واقفاً على باب المسجد، أمسك على بقلتي [أى احرسها] ، فسرق الرجل لجامها، وترك البيغلة وولى هارباً. فخرج على وفى يده درهمان مكافأة للرجل على إمساكه بقلته فوجد البيغلة واقفة بغير لجام، فركبها ومضى، ودفع لسلامه الدرهمين ليشتري بهما لجاماً، فوجد الغلام اللجام فى السوق قد باعه السارق بدرهمين. فقال على عليه السلام: إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولايزداد على ما قدر له <sup>(١)</sup>. وقال الشعبى: حكى أن رجلاً صاد قنبرة فقالت له: ماذا تريد أن تصنع بى؟ قال: أذبحك وآكلك، قالت: والله ما أشقى من قرم <sup>(٢)</sup> ولا أشبع من جوع، ولكنى أعلمك ثلاث خصال هى خير لك من أكلى.

أما الواحدة: فأعلمك بها وأنا فى يدك، وأما الثانية: فإذا صرت على الشجرة، وأما الثالثة: فإذا صرت على الجبل، قال: هات الأولى، قالت: لا تلهفن على ما فاتك، فخلهاها، فلما صارت على الشجرة قال: هات الثانية. قالت: لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، ثم طارت فصارت على الجبل فقالت له: يا شقى لو ذبحتنى لأخرجت من حوصلتى درتين، زنة كل درة عشرين مثقالاً، قال فعرض على شفقتيه وتلهف وندم، ثم قال لها: هات الثالثة. قالت له: أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة؟

ألم أقل لك: لا تلهفن على ما فاتك ولا تصدقن بما لا يكون أنه يكون. أنا لحمى ودمى وريشى لا يكون مثقالاً واحداً، فكيف يكون فى حوصلتى درتان كل واحدة منهما تزن عشرين مثقالاً؟ ثم طارت فذهبت <sup>(٣)</sup>.



(١) المستطرف / للأبشيبي.

(٢) قرم: أكل.

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي.

## الفصل الحادى والعشرون

### الكرم

١- الكرم ومكارم الأخلاق:

الكرم جامع لمكارم الأخلاق، فكل خصلة من خصال الخير، وخلة من خلال البر تضاف إلى محاسن الطباع والأعراق واقعة على اسم الكرم. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنَكُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

• ألا ترى أن التقى لا يكون إلا كريماً في جميع أحواله، حتى إنه ليبذل جوارحه في كل عمل يقربه إلى ربه، ويوجد بنفسه مجاهداً في سبيل إرضاء خالقه (والجود بالنفس أسمى مراتب الجود).

• ألا تنظر إلى قولهم: (نسب كريم) إذا كان يعطى الشرف والسؤدد وينم عن طيب المولد وكرم الهمة.

• وقولهم: (مجلس كريم) إذا أفاد العلم والمعرفة وبذل الآداب والحكمة.

• وقولهم: (خلق كريم) إذا وسم صاحبه بالبر والسماحة والبشر والكرامة وتحلى بالصفات الكريمة.

• وقولهم: (فرس كريم) إذا أسرع في العدو ونال السبق.

• وقد وصف الله تعالى بالكرم أنبياءه وملائكته فقال عز من قائل: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال جل ثناؤه: ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

وقال عز وجل: ﴿كَرِيمٌ بَرَرَةٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

• وهو اسم من أسماء الله - عز وجل - وصفة من صفاته، لأنه هو الذى انفرد بالملك والغنى وتوحد بالعظمة والثناء (فهو إذا عصى غفر، وإذا اطلع أمهل وستر، وإذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، لا يضيع من لجأ إليه، ولا يسلم من توكل عليه، يده مبسوطتان بالخيرات، وله خزائن الأرض والسموات، لا يُنازع فى قسمة رزقه، ولا يُراجع فى تدبير خلقه، فهو الكريم (بالإطلاق). وكل من تعلق بشيء من هذه الخلال وتخلق بطرف من هذه الخصال وصف بقدر ما بلغ منها ونال<sup>(٥)</sup>.

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) سورة التكويد الآية ١٩.

(٣) سورة الدخان الآية ١٧.

(٤) سورة عبس الآية ١٦.

(٥) انظر الخلق الكامل/ محمد جاد المولى ج ٣ ص ٢٦١.

## ٢ - فضيلة السخاء ومنزلة الكرم:

السخاء خلق المسلم، والكرم شيمته، والمسلم لا يكون شحيحاً ولا بخيلاً، إذ البخل والنشح خلقان زميمان منشؤهما خبث النفس وظلمة القلب، والمسلم بإيمانه وعمله الصالح نفسه طاهرة وقلبه مشرق، ولتنمية خلق السخاء في نفسه يعكف قلبه متأملاً متديراً على مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الِمْوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١).

فالخلق الكريم هو خلق السماحة والبشر والكرامة والتحلى بالصفات الطيبة، والتمسك بأهداب الشرف والنزاهة والنبيل.

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - ساد الناس فى الدنيا الأسخياء وفى الآخرة الأتقياء. والسخاء خلق الأنبياء وسبيل النجاة والغفران. يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «إن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام، وحسن الكلام» [رواه الطبرانى].

وعن الهلالى قال: أتى رسول الله ﷺ بأسرى من بنى العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلاً، فقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: يا رسول الله، الرب واحد والدين واحد فماذا من بينهم؟ فقال ﷺ: «نزل على جبريل فقال: اقتل هؤلاء واترك هذا، فإن الله تعالى شكر له سخاءً فيه» (٢). وقال ﷺ: «إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه» [رواه ابن ماجه].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها» [رواه البخارى]. وقال أيضاً: «إن الله جواد يحب الجود، ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفاسفها».

[رواه الحاكم]

ولجاهل سخى أحب إلى الله من عالم بخيل، وأدوأ الدواء البخل.  
وما أصدق قول الشاعر:

يسقط الطير حيث ينشر الحب وتغشى بنازل الكرماء

والإيثار وإنكار الذات من أعظم صفات الرجل الكريم، وهو أعلى درجات السخاء، والإيثار شعار النفوس الكبيرة التى تعمل جاهدة على خدمة الإنسانية عامة، وهو الذى يوثق الصلات بين أفراد المجتمع ويجعلهم إخواناً متحابين، وخلصاً متناصرين، بخلاف الأثرة، فإنها تجعل صاحبها مغبوناً مذموماً، يكرهه المجتمع ويمقتة ويحقره، وقد أثنى الله تعالى على الصحابة الذين آثروا غيرهم بالخير والبر فقال:

(١) سورة المنافقون الآية ١٠.

(٢) إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٣٥٩.

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنَفٍ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١)

وقد روى في سبب نزول هذه الآية: أنه نزل برسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً يقدمه له، فدخل عليه رجل من الأنصار. فذهب بالضيف إلى أهله ثم وضع بين يديه الطعام وهو لا يكفي إلا واحداً وليس عنده شيء غيره، فأمر امرأته بإطفاء السراج، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل، ولا يأكل. فأكل الضيف الطعام الذي قدمه إليه، فلما أصبح قال له الرسول ﷺ «لقد عجب الله من صنيعكما الليلة إلى ضيفكم» ونزل قوله تعالى: ﴿ وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٢).

وقال بعض الحكماء: أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام. وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة لأنه إن كان كريماً أصون عرضه، وإن كان لئيماً أصون عنه عرضي. ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه في العيادة [ أي لم يحضروا وهو مريض ] فسأل عنهم فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الديون. فقال: أخزى الله مالا يمنع عنى الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادى: (من كان لقيس عنده مال، فهو منه في حل. فكسرت عتبة بابي بالعشى لكثرة العواد) (٣).

### ٣- من مظاهر السخاء والكرم:

- (أ) أن يعطى الرجل العطاء في غير من ولا أذى.
  - (ب) أن يفرح المعطى بالنائل الذي سأله، ويسر لعطائه.
  - (ج) أن ينفق المنفق في غير إسراف ولا تقدير.
  - (د) أن يعطى الكثير من كثيره، والمقل من قليله في رضا نفس وانبساط وجه، وطيب قول (٤).
- بمعنى أن العطاء الذي يكون من النفس ويجود به صاحبه وهو متهمل الوجه متشرح الصدر هو الكرم المحض الذي يقود إليه الطبع، أما من جاد متحاملاً على نفسه ورغماً عن إرادته فليس عمله بكرم، وإنما هو تكرم؛ لأنه ينم عن التكلف وعدم الرضا، وتلك شنشنة من يحرص على المال ويحتجزه، وهو بذلك لا يكون كريماً على أية حال لأنه قنماً يجتمع الحرص والكرم.

(١) سورة الحشر الآية ٩.

(٢) سورة الحشر الآية ٩.

(٣) انظر الخلق الكامل/ محمد جاد المول ودعوة الإسلام/ السيد سابق.

(٤) منهاج المسلم/ أبو بكر الجزائري.

• وليس من أهل الكرم من يمنعون فروض الزكاة، وربما جادوا بجزيل الهبات لاستعذاب المدح والثناء، ومع هذا فمن ساعدته نفسه إلى بذل المال - تكلفاً - فإنه يسمى في المجتمع جواداً كريماً إلا أنه غير موفق للطاعة ولاموافق للشريعة، وكثيراً ماسقط الناس في هذا الباب، لأن المدح لذيذ والثناء محبوب؛ وهو بحر قد غرق فيه الناس قديماً وحديثاً.

• وليس من السخاء ولا من الكرم أن يعمد الإنسان إلى إعطاء الخبيث من ماله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ (١).

• ومما يتنافى مع السخاء والكرم: المن، ولذلك ينبغي لمصطنع المعروف أن يتجنب الامتنان وأن يتفاسى ذكره، فإن ذلك من تمام الإحسان وكمال البر. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ (٢).

#### ٤ - دوافع الكرم:

والكرم له أسباب تدعو إليه ودوافع تبعث عليه:

• فمنه ما يكون تديناً وتشريعاً: فإذا رأى الإنسان بأخيه حاجة، أو نزلت به نازلة أسرع إلى مساعدته، وإزاحة فاقته رغبة في الأجر ورجاء في المثوبة من الله تعالى. وهو أفضل الدوافع حالاً وأحسنها مالا؛ فإنه لا يشوبه كدر ولا من ولا أذى.

• ومنه ما يكون عن كثرة مال واتساع حال تدفعه إلى تقديم ما وفق إليه، ليجعله ذخراً للآخرة، ويستجلب به الشكر في الدنيا مع الثقة بالكفاية والغنى عن الزيادة.

• ومنه ما يكون رغبة في الحمد والشكر، ومحبة في الثناء وطيب الذكر، فيغدق بكرمه الضيفان وربما المحتاجين والمساكين، ليس من أجل الأجر والثواب، إنما من أجل أن يذهب صيته بين الناس، فيتكرم ويتوسع ليحمد ويمدح.

• ومنه ما يكون حياءً والحياء من الإيمان، فيجود بما يستطيع حياءً من سائله، وإن قل ماله، ولم تساعده آماله.

• ومنه ما يكون استجاباً لمنفعة أو دفعاً لمضرة: فيضطر إلى اصطناع المعروف، وإن كان به غير معروف، ورجاء بلوغ بغيته والوصول إلى أمنيته، فيأتيه تمنعاً لاتطبعاً.

• ومنه ما يكون لحراسة مجد أو منصب أو رياسة فيبذل معروفه من أجل الحفاظ على المكانة وحرصاً منه على استدامتها، ولا يخلو مثل هذا أن يكون طبيعة في النفس.

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٧.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٤.

## مواطن الكرم

للكرم مجالات عديدة ومتنوعة مثل إكرام الجار، وكفالة اليتيم، وقرى الضيف، والتوسعة على الأهل والعيال، وصلة الرحم وذوى القربى، وقضاء حوائج المحتاجين، وإعطاء السائلين، وإطعام الطعام، فضلا عن السماحة والمعروف وصنائع الخير. ونوجز الكرم على أهمها فيما يلي:

• إكرام اليتيم:

اليتامى ضعفاء فقدوا راعيهم ونصيرهم، وأصبحوا عرضة للإهمال من جهة، ومطمعا للعدوان من جهة أخرى، وبين فكى الإهمال وطمع العدوان يقع اليتامى فريسة تستدر رحمة الرحماء، وتستجلب حنان ذوى الشفقة والرأفة، فهم بؤساء لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا.

من أجل ذلك أوصى الإسلام المسلمين برعاية اليتامى، وبذل الحنان والعطف لهم، والمبالغة فى إكرامهم، وحسن تربيتهم وتأديبهم، وأمر بكفالتهم، وإدارة أموالهم بأمانة تامة. وحسب اليتامى فخراً أن يكون سيد المرسلين قد ولد يتيماً الأب ثم نشأ يتيماً الأبوين، ويخاطبه الله تعالى بقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾<sup>(١)</sup>.

وقد ذاق الرسول طعم اليتيم، وعرف فى نشأته مشاعره، وعرف ما يقهر اليتيم وما يواسيه، وعرف ما يفرحه ويسره وعرف ما يؤذيه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾<sup>(٢)</sup>. ومن ثم حث الرسول الكريم صلوات الله عليه، على إكرام اليتيم فى أحاديث كثيرة منها:

— مارواه البخارى عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم له ولغيره فى الجنة هكذا» وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى.

— مارواه ابن ماجه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله: «خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه».

— مارواه ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من آوى يتيماً إلى طعامه وشرابه أوجب الله له الجنة البتة، إلا أن يعمل ذنباً لا يغفر»<sup>(٣)</sup>.

إن كفالة اليتامى من أخلاق المجتمع المسلم، إذ لا يجوز بحال من الأحوال فى مجتمع مسلم أن يترك يتيم مهملاً، دون أن يجد من يكفله ويرعاه، فإن لم يجد من يكفله فالمجتمع الإسلامى الذى حوله كلهم أئمون إذا علموا به وأهملوه ولم يكفلوه<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة الضحى الآية ٦.

(٢) سورة الضحى الآية ٩.

(٣) انظر الحديث بتمامه فى مشكاة المصابيح (٤٩٧٥).

(٤) بتصرف كثير من الأخلاق الإسلامية/ عبد الفتاح حنيفة.

## • إكرام الجار:

وقد أمر الإسلام بالإحسان إلى الجار، وأوصى به خيراً، وجعل له على جاره حقوقاً<sup>(١)</sup>.

## • قرى الضيف وإطعام الطعام:

قال الله تعالى: ﴿وَطَعْمُونُ الطَّعَامِ عَلَى حَيْدٍ مَسْكِينًا وَبَيْتًا وَأَسِيرًا﴾<sup>(٢)</sup> إِنَّمَا نَطَعْمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا<sup>(٣)</sup>.

ولم تكن العرب تعرف الجود إلا في قرى الضيف وإطعام الطعام، ولا يعد سخياً من لم يكن فيه ذلك، حتى إن أحدهم ربما سافر في طلب الضيف الميل والميلين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» [رواه البخارى].

ومن إكرام الضيف طيب الكلام وطلاقة الوجه، والخدمة بنفس راضية، لذا قال الشاعر:

وإني لطلق الوجه للعبتغى القرى إن فنائي للقرى لرحيب  
أضاحك ضيفي عند إنزال رحله فيخصب عندي والمحمل جديد  
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

## • تفريج الكرب وقضاء الحوائج:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر في الدنيا يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» [رواه مسلم].

وروى عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلقاً خلقهم لحوائج الناس، فيفزع الناس إليهم في حوائجهم. أولئك الآمنون من عذاب الله» [رواه الطبراني].

## • إعطاء السائلين:

قال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾<sup>(٣)</sup>  
وقال تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا  
هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) سبق الكلام على حقوق الجار بالتفصيل في الفصل الخامس عشر.

(٢) سورة الإنسان الآيات ٨ - ٩.

(٣) سورة الزاريات الآية ١٩.

(٤) سورة الحديد الآية ٧.

وكان رسول الله ﷺ ينفق ما استطاع أن ينفق، وهو يستقل ما أنفق؛ وكان يعطي العطاء الجزل، فلا يستكثر ما أعطى، وما سئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه، وما سئل شيئاً قط فقال لا. أتاه رجل فسأله، فأعطاه غنماً سدت ما بين جبلين، فرجع إلى قومه وقال: أسلموا يا قوم فإن محمد يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

وحمل إليه تسعون ألف درهم، فوضعها على حصيرة، ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

وتعشى الناس عند سعيد بن العاص، فلما خرجوا بقي فتى من الشام قاعداً، فقال له سعيد: ألك حاجة؟ وأطفا الشمعة كراهة أن يخجل الفتى، فذكر أن أباه مات، وخلف ديناً وعيالا، وسأله أن يكتب له كتاباً إلى أهل دمشق ليقوموا بإصلاح حاله، فدفع له عشرة آلاف دينار، وقال له: لا أدعك تقاسى الذل على أبوابهم.

#### • السماحة والمعروف:

ومن ضروب الكرم السماحة والبشر وصنائع المعروف، وإدخال السرور على الناس. عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقي أخاه المسلم بما يحب ليُسِّرَه بذلك سره الله عز وجل يوم القيامة» [رواه الطبراني].

وقال ﷺ «كل معروف صدقة» [رواه البخاري].

وكان عبد الله بن عباس - رضي الله تعالى عنهما - من الأجواد أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه، وقال له: يا ابن عباس، إن لي عندك يداً (معروفاً) وقد احتجت إليها. فصعد فيه بصره، فلم يعرفه، فقال له: ما يدك؟ قال الرجل: رأيتك وأقفا بفناء زمزم وغلماك يمنح لك من مائها، والشمس قد صهرتك، فظللتك بفضل كسائي حتى شربت.

فقال ابن عباس: أجل إنى لأذكر ذلك، ثم قال لغلامه ما عندك؟

قال: مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم. فقال: ادفعها إليه، وما أراها تفي بحق يده (١).

#### أمثلة السخاء العالية

١ - بلغ من كرمه ﷺ أنه كان يستحيى أن يرد سائله خالي اليدين معتذراً بالفاقة. جاءه رجل فسأله، فقال: ما عندي شيء ولكن ابتع (٢) علي؛ فإذا جاءنا شيء قضيناها. فقال عمر بن الخطاب، يا رسول الله، قد أعطيت من قبل، فما كلفك الله مالا تقدر عليه.

(١) المستطرف/ للأبشيحي.

(٢) ابتع: اشتر.

فكره النبي ذلك، فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أُنْفِقْ، ، ولا تخش من ذى العرش إقلا، فتبسم النبي ﷺ، وعرف البشر في وجهه، وقال: بهذا أمرت<sup>(١)</sup>.  
 أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصن مثلها، فجاء عباس بن مرداس فقال:

أتجعل نهبي ونهب العبيد      بين عيينة والأقرع<sup>(٢)</sup>  
 ومساكن حصن ولا حابس      يفوقان جدى فى مجمع  
 وماكنت دون امرىء منهما      ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال رسول الله: يا أبا بكر اقطع لسانه عني، أعطه مائة من الإبل<sup>(٣)</sup>.

٢ - روى أن عائشة - رضى الله عنها - بعث إليها معاوية رضي الله عنه بمال قدره مائة وثمانون ألف درهم، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت لجاريتهما: هلمى إلى فطوري، فجاءتها بخبز وزيت وقالت لها: ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه؟ فقالت لها: «لو كنت ذكرتيني لفعلت»<sup>(٤)</sup>.

٣ - روى أن عبد الله بن عامر اشترى من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي فى سوق مكة بسبعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع عبد الله بكاء أهل خالد، فسأل عن ذلك فقيل له: يبكون لفقدهم دراهم، فقال لغلامه: انتهم وأعلمهم أن الدار والدرهم جميعا لهم<sup>(٥)</sup>.

٤ - وكان ابن معمر من الأجواد قيل: إنه كان لرجل جارية يهواها، فاحتاج إلى بيعها، فاشتراها منه ابن معمر بمال كثير فلما قبض ثمنها أنشأت تقول:

هنيئا لك المال الذى قد قبضته      ولم يبق فى كفى غير التحسر  
 أبوء بحزن من فراقك موجه      أناجى به صدراً طویل التفكير  
 فأجابها بقوله:

ولولا قعود الدهر بى عنك لم يكن      يفرقنا شىء سوى الموت فاعذرى  
 عليك سلام لازيارة بيننا      ولا وصل إلا إن يشاء ابن معمر

فقال ابن معمر: قد شئت، وقد وهبتك الجارية وثنمتها فخذها وانصرف<sup>(٦)</sup>.

(١) الإحياء (٢/٣٢٧).

(٢) النهب: المراد الغنيمة. العبيد: اسم فرسه.

(٣) الكشاف (١/٥٤٦).

(٤) منهاج المسلم/ أبو بكر الجزائري.

(٥) الستطرف للأبشيبي.

(٦) المصدر السابق.

هـ - اجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس - وهو عامل بالبصرة - فقالوا له:  
لنا جار صوام قوام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله، وقد زوج ابنته من ابن أخيه وهو  
فقير، وليس عنده ما يجهزها به، فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح  
صندوقاً فأخرج ست (بدر) <sup>(١)</sup> ثم قال لهم: احملوها، فحملوها، فقال ابن عباس: ما أنصفناه،  
أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه، ارجعوا بنا إليه نكن أعوانه على تجهيزها فليس للدنيا  
من القدر ما يشغل مؤمنا عن عبادة ربه، وما بنا من الكبر ما يمنعنا من خدمة أولياء الله تعالى  
ففعل وفعلوا <sup>(٢)</sup>.



---

(١) بدر: مفردا بكرة كيس فيه مقدار من المال يقدم في المناسبات.

(٢) الإحياء (٣ / ٣٦٤).

## خاتمة: نسأل الله حسنها

وبعد: فقد كان الفراغ من كتابة هذا السفر (مكارم الأخلاق في ضوء القرآن والسنة) ليلة اطمأن فيها قلبي. ولعل القارئ الكريم يجد في هذه الدراسة المتواضعة الفوائد المهمة والقواعد الراسخة لبناء علم الأخلاق الإسلامى، الذى لم يتأثر بفكر غربى ولا بمذهب فلسفى، وإنما هو هدى القرآن الكريم، وسنة الرسول العظيم.

وفى نهاية المطاف:

فإننى أسأل الله أن ينفع به عباده المؤمنين، ويجعله خالصا لوجهه الكريم، ويكتب له القبول فى الأرض، ويضاعف به الأجر والثواب لى ولزوجتى التى هيات لى الجو الملائم لكتابته من بدايته، وكانت خير حاث لى على إتمامه حتى نهايته.

واعترافا بالجميل، وإقرارا للحق، فإنه لولا جهدها وكدها وتعبها من البداية إلى النهاية، لم يكن لهذا الكتاب أن يرى النور.

والواقع أن العمل فى ذلك البحث الأخلاقى، قد استغرق وقتا طويلا، وعملا متواصلا، وكانت الفائدة صعبة المنال، لولا الكثير من الصبر والمصابرة وسعة الصدر، وذلك من أجل الحصول على المعلومة المفيدة دون إطناب ممل، أو اختصار مخل.

وبذلك قدر لهذا الكتاب أن يرى النور، وأن يخرج إلى حيز الوجود، وأن يولد مولودا جديدا من الكتب الرائدة فى عالم الفكر والأخلاق، وذلك بفضل الله وحوله وتوفيقه، ثم بجهد السيدة حرمى.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

والله من وراء القصد، وهو الهادى إلى سواء السبيل.

وهو نعم المولى ونعم النصير،

أحمد على خضر